شاكر نوري

نزوة الموتى

رواية

الفارابي
anep

شاكر نوري

نزوة الموتى

روايـــــة

ANEP ـ دار الفارابي

الكتاب: نزوة الموتى
المؤلف: شاكر نوري
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
* منشورات آنيب ANEP
05 شارع خزناجي ـ الأبيار ـ الجزائر
الهاتف: 76 09 92 21 213
الفاكس: 77 09 92 21 213
e-mail: editionanep@yahoo.fr
الطبعة الأولى 2004
ISBN: 9953-438-67-6 ـ لبنان
ISBN: 9947-21-197-5 ـ الجزائر
Dépôt - légal: 2132-2004

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

«أليست الكلمات والمعاني
أقواس قزح وجسور أوهام بين
مَنْ فرَّقهم الدّهر إلى الأبد؟»

نيتشه

«إن موت الأب يُفْقِد الأدب
كثيراً من متعته... فإذا لم يعد
هناك أب، فماذا ينفع أن نسرد
القصص؟!»

رولان بارت

إلى ابني كنان.. ثمرة أعوام
البحث والحب والمصادفة
أتمنى أن ترضعه أمُّه اللغة
العربية مع حليبها
في بلاد الغربة
ليقرأ ما كتبت عن جدِّه
الراحل.....

1

وقعت البرقية على بلاط شقتي كما تقع من سفرتها الغامضة فراشة رمادية اللون تقطع المليمتر الأخير.

هكذا سقطت فجأة.. تتلوى أمامي. جناحان التصقا أحدهما بالآخر وإلى الأبد.

لا أدري كيف خطر في ذهني هذا الموت ودهمني في هذا الصباح الباكر؟

موت الفراشة.. وربما موتي أنا.

صباح داكن دهمني، حاملاً بين كفيه قدر الموت، عبر ورقة زرقاء، يبدو أن ساعي البريد دسّها لي من درفة الباب.

ترددت قليلاً قبل أن أمد يدي لالتقاطها من الأرض، وقبل أن أفتحها، اجتاحت رأسي موجة من الأفكار، على الأقل أدخلت الرعب في أعماقي، البرقيات مخيفة دائماً تأتي مثل طائر بوم أسود يحمل في عويله نذير شؤم! هذه هي المرّة الأولى التي أتسلّم فيها برقية منذ سنوات طوال. وقد نصحت

جميع أصدقائي بألّا يبعثوا لي برقيات مهما كلّف الأمر، لا أدري لماذا؟ ربما لأنها تذكرني باستدعاءات دائرة الشرطة والبنوك والمحاكم وغيرها.

وجدت نفسي واقفاً أمام المرآة المعلقة على أحد جدران الصالون وقفة المأخوذ أمام نفسي، وأمام صورة أبي المعلقة هي الأخرى، وتظهر مضببة على أثر طباعتها من دفتر نفوسه، لأنني لم أكن أمتلك صورة له، فاقترحت حينها على أمي أن تذهب إلى كاتب النفوس وتستنسخ لي صورة واحدة للذكرى. هكذا وجدت نفسي وكأنني أقف في طابور التشييع من جديد كما لو أنه مات بالأمس. زاد حماستي لهذه السفرة أنني كنت بحاجة إليها رغم شعوري بعبثية نقل رفاته إلى المقبرة الجديدة لأن قبره كان بمثابة الوجود الثاني له على هذه الأرض، الظل الذي كنت أجري وراءه في مدينتي، رغم أنني كنت أعرف أن ما أرحل من أجله موجود هنا، وعذاب قبر أبي تحول إلى همّ لي في هذه الأثناء بالذات.

رددت في نفسي:

أليس الرحيل يشبه محاورة الموتى أو محاورة رجال من عصور غابرة؟

قد يخرج أبي من تلك العصور، ليحدثني عن حياتي المقبلة، لكنني شعرت فيما بعد بأنني أتحدى بسفرتي كل القوانين، ربما كنت ممنوعاً من السفر إلى هناك، وبذلك لا

أستطيع العودة. عرفت بأنني كنت ذاهباً إلى عالم فارقته زمناً طويلاً ولكنني قد أجد متعة في هذا الجحيم أكثر من الحالة السكونية التي أعيشها هنا منذ سنوات طوال، وكل شيء متوقع في هذه الرحلة، من يعلم؟ على أية حال، كنت أوهم نفسي بأنني أذهب إلى مكان آخر، غير وطني الذي تغربت عنه رغماً عني وليس بحثا عن عمل.

في روحي شيء من رطوبة باريس، وصدى أمطارها المتساقطة الوافرة والتي لا تكاد تنقطع حتى في أشهر الصيف. كان ذلك في نهاية صيف اختلطت أمطاره الفجائية برائحة بيض فاسد، تكدست فيه الغيوم على نافذة شقتي في محاولة لتشديد الحصار عليّ، وخنق آخر شعاع ينفذ إليّ. هكذا تعكّر مزاجي منذ الصباح الباكر الذي لم أتبين له أي ملامح في سماء باريس إذ تختلط هنا الأوقات بعضها ببعض بحيث لا يمكنني التفريق بين الصباح والظهيرة، لون رمادي يستولي على الفناء المحيط بشقتي، ويسيل على الجدران الخارجية، حاجباً رؤية الأشجار والنوافذ الأخرى. كرهت هذا اللون منذ طفولتي، ولم أكن أعبأ حتى بالبدلات الرمادية التي كانت أمي تشتريها لي آنذاك، لعل هذا اللون لم يكن يزيد من كآبتي فقط بل يبعث الحنين في نفسي إلى شمس مدينتي التي غابت عني أكثر من عشرين عاماً.

لم يكن خبر البرقية يشجعني على تناول فطور الصباح. . .

زبدة، كسرة خبز، بسكويت، جبنة، شاي سيلاني، وبيض مسلوق... ومازالت تلك الرائحة تتسلق أنفي مثل دودة تحاول عبثاً أن تصعد ساق زهرة خشخاش.

هكذا فتحت عينيّ هذا الصباح، كأنما منذ الأزل الكوني، لكي أجد نفسي أعيش في هذه الشقة المنعزلة، لا أسمع سوى ضجيج العمال الذين يشيِّدون بناية للعجزة والمتقاعدين في الجهة المقابلة للنافذة، وأحياناً يتناهى إلى سمعي صوت حارسة المبنى، تتمتم بالإسبانية أو البرتغالية، ولا تتوقف لحظة واحدة عن الصراخ، وهي تنظّف الطابق الذي تقع فيه شقتي، وتلعن النزلاء القذرين الذين تركوا من الليلة الماضية المناديل الورقية وأعواد الثقاب وأعقاب السجائر مبعثرة في الممرات المصنوعة من الخشب الجوزي، ولا تزال رائحة ماء (جافيل) تتسلل من الفتحات التي تتخلّل باب الشقة، تزكم الأنوف وتبعث على النفور والتقيؤ.

كانت ذبذبات الحروف على ورق البرقية تعلن عبر كتابتها المتفسحة ـ تذكرت برقيات الستينات بحروفها السود القاتمة الصلبة ـ عن شيء قد يكون الحقيقة أو مجرّد شاشة عكرة في مرآة.

أمعنت النظر في الحروف وتذكرت فروقاً قديمة بين القراءة الجهرية والقراءة الصامتة، وتشبثت بهذه الذكرى كي لا تصعد الدموع إلى عينيّ.

مات أبي قبل أن أولد أو في الساعات الأولى لولادتي.. أو في عمر التاسعة، لا أدري بالضبط لأنني لا أتخيله سوى شبح يمر في المنزل ليلاً بعد أن يقضي النهار بكامله يعمل في المعسكر.

والآن تقول البرقية: «إن المقبرة ستنتقل إلى مكان آخر».

ـ اللعنة... كيف تنتقل المقبرة إلى مكان آخر؟!

حتى المقابر غير مستقرة عندنا أم هي مقابر جوالة أم هكذا يحلو لهذا أو ذاك أن ينقلها بقرار أو بمرسوم.

لم تكن لدي فكرة واضحة عن مصير المقبرة وما الذي سيحل بها، فكرت في مدير البلدية وسماسرة البناء والمقاولين.. بأولئك الشرهين، ذوي الكروش المندلقة والرؤوس الضلعاء الخاوية والذين لا يفكرون إلّا في بناء الشقق وبيعها بأسعار خيالية... هم مستعدون لشراء أي أرض، حتى المقبرة، يوظفون العمال بأجور رخيصة، ويشترون الطابوق بأسعار بخسة ويحصلون على ديون من البنوك ويرددون عبارتهم المألوفة: توكلنا على الله!

حتى الله يحضر في قاموسهم عندما تسعفهم كلماته الجميلة.

كان عليّ أن أتوقف عن هذا التفكير وأن أستقل طائرة خلال الأربع والعشرين ساعة التالية وأرحل وإلّا ضاع قبر أبي

واختلط نثار عظامه بذرّات أرض لم تطأها قدماي منذ زمن طويل.

فرك مدير المكتب الذي أعمل فيه شاربه، ومرّر إبهامه الأصفر على جبهته ذات التضاريس، ونظر إليّ بمكر ثم تمطط في كسل ونفث دخان سيجاره الغليظ قائلاً:

ـ ثلاثة أيام إجازة فقط.

قفزت من مقعدي وانشدت عيوننا، وقلت لنفسي:

ـ كيف عرف هذا التمساح العتيق أن بلدية مدينتي حددت هذه المدة لنقل رفات أبي؟

لا تكفي هذه المدة حتى للذهاب والإياب وهو يعرف حق المعرفة أنه يتحتم عليّ الذهاب من العاصمة إلى مدينتي التي تبعد نحو مائتي كيلومتر لا تقطعها القطارات القديمة إلّا في نهار كامل.

لم يمهلني صوت أمي كثيراً، جاءني في تلك الليلة عبر أسلاك الهاتف ضعيفاً كأن فيه حشرجة الموت، وهي تسألني عن استلامي البرقية وتصر على مجيئي إلى مدينتي لنقل رفات أبي من المقبرة القديمة إلى المقبرة الجديدة.. وتضيف:

ـ لا تصدق كل ما يقوله لك أصدقاء أبيك.

ورحت أفكر.. من هم أصدقاء أبي.. هل أعرفهم ياترى؟

ثم أوضحت حديثها قائلة:

ـ عندما تأتي سوف أقول لك من هم.

وقلت في نفسي:

ـ هل ما زالوا أحياء؟

ربما كانوا أصغر عمراً منه أو في عمره.

وتنبهت:

ـ ألم يكن له أعداء؟

أردت أن أسألها عن فريدة، المرأة الوحيدة التي أحببتها، ولم أفلح في الزواج بها، لكنني كنت أعرف إجابتها:

ـ لقد تزوجت يا بني!

كنت أعرف أيضاً أن السؤال عنها لا يجدي لكنه ربما يشبع رغبة الحنين.

كانت الساعات بعد انتهاء مكالمتها تمر ببطء كما تمر جنازة مجهولة.

أسدلت ستائر شقتي، وأخذت أذرف الدمع من دون إرادتي، قليلة هي المرات التي أبكي فيها، تذكرت اليوم الذي دفن فيه أبي في مقبرة مدينتي، كما روت لي أمي تفاصيل موته المثير والضاج، ثم تحملت وحدها أعباء معيشتي.

هكذا انتقلت رائحة المقبرة إلى غرفة نومي.

وتساءلت في سري:

ـ لماذا طلبت مني أن أنقل رفات أبي بنفسي؟ أما كان أجدر بها أن تستأجر حفار قبور محترفاً ليقوم بهذه المهمة؟

تساؤلات انزلقت إلى فراشي وأغطيتي ونامت معي على

السرير لتبعث الحمى في جسدي الذي بدأ بالغليان منذ استلام البرقية هذا الصباح.

كنت مهموماً بهذه الرحلة، ولم أكن أتحمل أهالي مدينتي الذين، رغم محبتي لهم، يحاولون أن يخلقوا من كل شيء ذريعة صالحة لكسر الزمن وللاحتفال بالأعياد، فهم مولعون بالطقوس، لكن هذا الفن الذي يوقظ الأذهان تحول إلى مسكن ومنوم لشعب راح يبتلع السم مع كؤوس الشاي، واختزلت احتفالاته العظيمة إلى احتفال واحد رتيب، وتاريخ واحد، واسم واحد، ونهار واحد، وليل واحد.

كان يمكن أن يتحول نقل رفات الموتى إلى المقبرة الجديدة إلى انتصار لهذا الاحتفال الواحد.

وما زالت أمي تتساءل: لماذا اختفت كل الأفراح؟

كانت بلادي سواء في أطرافها القصية أم في مدنها الكبرى، تصلي، تهتف، تثمل، وتبتهج، والآن أصبحت كل الأشياء تقدم رخيصة قرابين للحرب.

كان بودي أن أعثر في هذه الليلة أو في الصباح الباكر على رقم هاتف صديق من أبناء مدينتي لكي أتصل به وأستفهم عن الأمر، بل وأسأله إن كان مجيئي يشكل خطراً على حياتي، لكنني لم أعثر على صديق واحد لأن معظمهم رحلوا، فقررت أن أذهب على مسؤوليتي وأتحمل كل شيء من أجل تنفيذ وصية أمي، آخر ما أمتلك في حياتي.

كان الموت يفتقر إلى المغزى عند أهالي مدينتي، ولم يعد

انتقالاً أو ممراً إلى حياة تفوق حياتنا الزائلة، ذكرني به نقل رفات أبي، وأصبح واحداً من ألعابهم، لأنهم لم يعودوا يعبأون بشيء، فكيف يعبأون بالموت؟ إن لامبالاتهم به إنما هي الوجه الآخر للامبالاتهم بالحياة.

كان علي أن أنام، وأطرد كل هذه الأفكار من رأسي كي أستطيع الاستيقاظ في الصباح من أجل التحضير لسفرتي، ولكن كيف لي أن أطرد هذه الأفكار بعد أن تسللت إلى فراشي وامتزجت بالهواء الذي أتنفسه وبرائحة جسدي؟

لا أدري كيف ألهبت هذه البرقية أحشائي وبعثت أبي من جديد من قبره؟! يبدو بأننا لا نتغير إلّا لنتلاشى كما لو أن موتنا يضيء حياتنا، وكلنا نسعى إلى حتفنا، وننشد ميتة نصنعها سواء كانت هادئة أم عنيفة.

وتساءلت:

ـ هل يمكن أن تكون هذه البرقية كونية بهذا المعنى؟

وهل كان موت أبي يفتقر إلى مغزى شخصي؟

لا تمتّ حياة أبي بصلة لحياته فقد نذرها للآخرين.

كان الموت مسؤولية أيضاً ويعني الانتماء إلى زمان ومكان لهما مواصفاتهما، فمن السهل أن يموت المرء في الوقت الحاضر لأن تعدد الآلهة فيما مضى كان عبئاً أمام الموت الجاهلي، وموت أبي فاصل بين الزمان والمكان، بين مسرحين مجردين دارت فيهما رحى حياته، لكنني عشت كل هذا الزمن وكأن الموت لا وجود له.

لا يمكن أن أنسى ما كانت تردده أمي على لسان أبي من «أن الموت فم هائل لا يعرف الشبع!» وقائل هذه الحكمة لم يكن يفكر في موته الخاص مثلي تماماً إذ لم أكن أفكر في الموت إلا بعد استلام برقية أمي. هكذا أصبح للموت مغزى لأول مرة وأصبح موت أبي ممراً يفضي إلى حياة خيالية أخرى، ولعل الفرق بين ما أعيشه هنا وهناك أن الناس هنا لا يتفوهون بالموت بل يحاولون نسيانه، أما أهالي بلدي فعلى النقيض، ينامون ويستيقظون مع الموت بل يحتسونه مع أقداح الشاي بل ويحتفون به وإلا ما الذي دفع بسلطات بلدية مدينتي إلى أن تتخذ قرار نقل المقبرة القديمة إلى مكان جديد وكأن الصحارى المحيطة بمدينتي تقلصت، وأغرقتها المياه؟!

هل أن لامبالاة العراقي بالموت مستمدة من لامبالاته بالحياة يا ترى؟

لم يكن الموت يفزعهم لذلك يذهبون إلى ساحات الوغى وكأنهم يذهبون إلى حدائق النزهة، وموتهم ما هو إلا مرآة لحياتهم، وحاضر في مشاجرات الصغار الذين يرددون: إذا لم تعطني اللعبة قتلتك! الموت يختلط بالمزاح. وربما يتهكم أحدهم قائلاً: إن أخف عقوبة لدينا هي الإعدام، القتل هاجسنا، ربما لأن الموت يغوينا ويستدرجنا إلى مواقعه دون أن ندري، وما انفكت دوامة العنف تغوينا مثل ساحرة سخية، تلبي جميع رغباتنا، وأكبر دليل على ذلك هو عاشوراء. . . عندما يذبحون الأضحية في الأعياد، يحتفظ الأطفال بأطول

عظمة، يغسلونها بالزعفران الحر والحنة، ويلبسونها ثوباً فاخراً، تخيطه لهم أمهاتهم، ويعيش الأطفال خيال الرجل العظيم، يكلمونه ويعتادون عليه، إلى يوم مجيء عاشوراء، يأخذونه في هذا اليوم، ويبدأون بالبكاء عليه، ويدفنونه في قبره، يذرفون الدموع ويأكلون الحلوى في ظل تمثيل مشاهد الموت ضمن دراما المسرحيات الشعبية في الأحياء، والتي تتحول إلى ما يشبه الألعاب النارية، الغرض منها تسفيه الحياة العابرة، ولعل الخوف هو ما يجعلنا نشيح بوجوهنا عن الموت ونوليه ظهورنا.

لا بد من أن أنام فهذه الأفكار قد تستغرق الليالي كلها دون أن أجد لها حلاً، وحلّي الوحيد هو أن أحزم حقيبتي الصغيرة وأنام استعداداً للسفر.

نهضت باكرا، دون أن أذوق طعماً للنوم، لقد تعودت ألّا أنام عندما أفكر بالسفر في اليوم التالي.

دخلت الحمام لأحلق ذقني في محاولة لإزالة الكسل عني، وما أن نشرت رغوة الصابون على وجهي، حتى تلمست تجاعيد وجهي التي جسدت لي سنوات الغربة في المرآة المعلقة على المغسلة المستطيلة، فتذكرت وصية أمي أو إحدى وصاياها والدموع تبرق في عينيها قبل رحيلي:

ـ إياك أن تحلق ذقنك من دون هذه الفرشاة.. وهذه الطاسة.. وهذه المرآة المدوّرة.. هذه وصية أبيك.. وهذا ما ورثته منه!

انفجرت في ضحك ساذج حتى تبعثرت الرغوة وغطت فمي وشاربي وكادت تخنقني.

الفرشاة والطاسة والمرآة!

إنها تعويذات أمي وأدعيتها التي اعتدتها منذ طفولتي.

ولكيلا استفزّ مشاعرها وضعتها في حقيبتي، قبل سفري، تحت حراسة نظراتها الحزينة.

قالت بالخرف الواحد:

ـ خذها معك يا بني.. إنها ذكرى احترام لوالدك الذي كان ينتظرك بلا جدوى.

قلت لها:

ـ أتعتقدين يا أمي أن هناك ابناً لا يريد رؤية أبيه؟

عندما بدأت أعدّ حقيبتي للسفر، تذكرت الطاسة والفرشاة.. والمرآة، دسستها بين دفتي الحقيبة واستبدلتها بأدوات حلاقة جديدة لأؤكد لها أنني حافظت على هذا الإرث طوال هذه السنوات.

قلت في نفسي:

ـ لا بد من أن هناك سرّاً يحوم حول أدوات حلاقة والدي!

لكنني سرعان ما شعرت بتفاهة الموضوع واعتبرته واحداً من خرافات أمي إذ لم تبق من الفرشاة سوى شعيرات ضئيلة.. ومن لون الطاسة النحاسية اللمّاعة سوى بقايا صدأ أسود.. أما المرآة المدوّرة، بوجهيها، فقد شُرخت، ربما من

كثرة ما حدّق بها أبي، وهو يحلق ذقنه لسنوات طوال... إنني لم أر أبي يحلق ذقنه، أمي هي التي احتفظت بأدوات حلاقته وأعطتني إياها كثروة ثمينة لا ينبغي إضاعتها..

وقالت لي في ذلك الحين:

ـ ألا تعلم أن الشَعَر ينبت في الوجه حتى بعد الموت؟

حين نظرت في عينيها، تنهدت قائلة وهي تبكي:

ـ حين سجّي أبوك عارياً على طاولة المغسلة في صحن البيت، لاحظنا لحيته تنبت بعد مرور يوم وليلة على وفاته وقد حلق ذقنه قبل ساعات من موته. وأتذكر أنني بنفسي أحضرت له أدوات الحلاقة.. كانت آخر مرّة يجلس فيها على السجادة ويضع المرآة أمامه على الطاولة الواطئة، بعد أن يسندها بأبريق الشاي، ويرغّي وجهه بالصابون، وكان لا يحلق ذقنه إلّا حين أكون بجواره.

وبعد لحظات صمت أضافت:

ـ كان الأهم أن ينزل إلى قبره نظيفاً. فحين يموت البشر يصبحون ملائكة.

ـ ملائكة؟!

ـ أجل. حين مرّر الحلاق شفرة الموسى على صفحة وجهه، انفرجت أساريره عن ابتسامة، ظلت مطبوعة على وجهه إلى أن أنزلناه في القبر، وربما هي المرّة الوحيدة التي لم يحلق فيها أبوك ذقنه بنفسه.

لا أدري لماذا تخيلت أنه ابتسم لي.. وربما ابتسمت له من هناك.. من بطن أمي.

قلت في نفسي:

ـ ماذا لو أقدمت أمي علىّ تحنيط أبي من أجل الحفاظ على ابتسامته الشاردة بعد الموت؟!

برقية أمي مثل حصان جامح ينطلق بي إلى مكان مجهول وناء، صوت يحثني في وسط صخب هذا العالم إلى قلع بعض جذوري التي امتدت في هذه الأرض خجلاً، لم أكن أتصور قطّ أن مجرّد ورقة برقية زرقاء قادرة على قلع هذه الغرسة، لم يكن لي زوجة ولا أطفال، وديمومتي في هذا البلد راتب ضئيل أتقاضاه شهرياً، لكن برقيتها دفعتني لاكتشاف كنز ميت بقيت أبحث عنه طوال حياتي دون أن أعرف أنه يمر بين أصابعي هارباً نحو المجهول سر تلك النطفة التي أطلقها أبي في رحم أمي ذات ليلة محمومة، جاهلا بأنه يخلق العذاب من قطرة نطفة نزلت من ظهره، وشقت ذلك الجسد الهزيل لتمد هذا التاريخ أعواماً طوال.

طاسة نحاسية...

فرشاة حلاقة...

مرآة مدوّرة...

قبر أبي...

وقبل ان أغادر شقتي إلى المطار، ترددت في أذني كلماتها الأخيرة التي التقطتها من سماعة الهاتف:

ـ إياك أن تلتقيهما..

ـ من؟

زوجتا أبيك...زليخة المجنونة.. وسلطانة الخائنة!

كنت أكره الأصوات المحذرة التي تصرخ في أذني.

لا تحذريني يا أمي، الجميع يحذرونني قائلين: لا تسافر، لا تقابل غريباً، لا تلمس امرأة عذراء، لا تعمل في السياسة، لا تدافع عن الفقراء، لا تذهب بعيداً في أي موضوع... هكذا قدر لي أن أعيش حياتي بمشيئة الآخرين لا بمشيئتي.

أكانوا يريدونني أن أصبح مثل أبي، نسخة منه، ورقة في غصن، وغصناً في شجرة؟!

في الواقع، عاش أبي جحيماً بارداً كالثلج الحارق لا مثيل له بين ثلاث نساء لم يرتحن في قرارة أنفسهن إلّا عند موته: أمي.. وزوجتاه المطلقتان زليخة.. وسلطانة كنّ يتشاجرن حتى ساعة وفاته، بل وحتى بعد دفنه، ويتصارعن حتى على بناء شكل القبر، ونوع الطابوق، والتراب، والشاهدة الرخامية، والمرآة المعلقة عند رأسه..

إنني، في حقيقة الأمر، لم أكن أعبأ بتلك الذكريات قدر ما أفكر في الطائرة التي ستحملني غداً.. فأصل ليلاً، سأمضي ليلة في بغداد ثم أستقل قطاراً في الصباح الباكر إلى مدينتي الصغيرة، سوف أحاول نقل رفات أبي في النهار نفسه، وإذا تأخرت بسبب البحث عن حفّار القبور، فسأمضي ليلة أو ليلتين هناك ثم أعود إلى مقر عملي في باريس.

وازع أخلاقي كان يدفعني إلى تنفيذ وصية أمي التي جاءت على صفحة البرقية المليئة بالتحذيرات.

رفعت البرقية من بين الأوراق والصحف والكتب المكدسة على مكتبي، وعلقتها، مثل فراشة محنطة على الجدار، بالدبوس شأنها شأن الفواتير الشهرية التي أعلقها على الجدار كي لا أنسى تسديدها في نهاية كل شهر بحيث أصبحت ورقة البرقية المعلقة أحد واجباتي القادمة، بل الطارئة والعاجلة جداً، ولكنني وضعتها في جيبي مثل حرز أو أدعية قبل سفري بدقائق، وقلت في نفسي:

ـ ما هو، ياترى، جوهر هذه البرقية؟

هل هي نزوة من نزوات أمي.. ذريعة تجذبني لزيارتها رغم المخاطر المحدقة بهذا السفر؟

أم هي نزوة من نزوات الموتى، نداء إلى الأحياء، نداء أبي إليّ عبر كلمات البرقية؟

قلت في سري:

ـ ما الكلمة؟ إنها ريح عابرة.

ـ ومن يستطيع احتواءها؟

ـ هذه البرقية.

ـ لماذا؟

ـ لأنها تنقل كلمات أمي المطبوعة بالألوان الزرق، والموزونة بالنقود، لذا جاءت مختصرة، وربما هذا الاختزال

أدى إلى تركيز كلماتها في رأسي أكثر من أية رسالة من رسائلها الأخرى، فالثرثرة لا تؤدي إلا إلى المتاهة، متاهة الكلمات الضائعة واللامجدية، لذلك فإن عصارة البرقية هي:

نقل

رفات أبيك

إلى المقبرة الجديدة.

كلمات فجرت كل شيء وبعثت النار في رماد جامد، وكأن أمي بذرت هذه الكلمات بين النجوم وأنا أنظر إليها في هذه الليلة الباريسية الصافية على غير عادتها، وربما الريح التي دخلت من النافذة راحت تحرك الفراشة المحنطة على الجدار بعد موتها، فذهبت لتثبيتها خشية أن تطير وأفقد آخر أثر لكلمات أمي مع الريح، ولا أدري لماذا تعلقت بها كما يتعلق غريق بقشة طافية في فيضان هادر.. وها أنذا أتحسسها في جيبي في طريقي إلى المطار.

2

ها أنذا أعود إلى مدينتي التي لم أشم منها سوى رائحة قبر أبي التي تصاعدت إلى أنفي رويدا رويدا، لتذكرني بسنوات انطوت، وراحت تتجسد أمامي على شكل لحظات تحتضر هي الأخرى، ليدفنها التاريخ في مدافنه الشاسعة.

توجهت أنظاري إلى رواق المطار حال هبوط الطائرة.

رأيتها من بعيد، وسط حشد هائل من المستقبلين تقف وراء لوح زجاجي، تلف رقبتها بوشاح أسود قاتم لا يظهر من وجهها سوى عينيها البارزتين.

صرخت:

أمي..أمي...

هرعت نحو اللوح الزجاجي محاولاً اختراقه عبثاً.

لوّحت لها بيدي طالباً منها الاقتراب لأراها بوضوح أكثر، مرتجف الأوصال، كأنني أودعها لأول مرّة، سافرت بإرادتي،

وها أنا ذا أعود بإرادتها، وبين هاتين الارادتين، امتد بريق خاطف من العمر اختزلته هذه اللحظة.

كان المسافرون ينتظرون حقائبهم التي تقذفها أحزمة مطاطية دوارة من جوف المطار بينما كنت أحمل حقيبتي بيدي، مما سهّل عليّ الخروج من مكتب فحص جوازات السفر بأسرع ما يمكن. هرعت إليها واحتضنتها، فنفذ إلى أنفي عطر أزلي طفولي يذكرني برائحة تراب مبلل ينبعث من منزلنا الطيني القديم. وحين انحنيت لتقبيل يدها، قبلتني من رأسي، فانبجست دموعها، تلتمع مترددة بين الخروج والبقاء في المحجرين.

كانت إدارة فندق (شيراتون) قد حجزت لي غرفة بسرير كبير دون علم بأن أمي ستنام معي في الغرفة ذاتها، بل لا تعلم حتى إن كانت لي أم على قيد الحياة وأنها لم تكن راغبة في تركي والذهاب إلى بيت أقارب تسكن عندهم في ضواحي بغداد البعيدة.

جلسنا في شرفة الغرفة المطلة على دجلة، على كرسيين خشبيين، لم يتغير هذا النهر لكن مياهه انحسرت، واتسعت شواطئه الرملية، وظهرت فيه بعض جزر الجدب، المنذرة بموسم الجفاف وانغلقت منافذ هذا النهر الأسطوري المكتظ بالبساتين. بقينا لبرهة لا نعرف كيف نتبادل الأحاديث باستثناء الاستفسار عن الصحة وأحوال الأقارب وأخبار مدينتنا، محاولين بذل جهدينا في حبس دموعنا لكن عبثاً. لم أكن

أعرف سر الدموع إلا في هذا اليوم الذي افترقت فيه عن أمي منذ أكثر من عشرين عاماً، وتساءلت من أين تأتي هذه الدموع، لعلها تعيش في مكان ما وراء عيوننا، ولا نحسُّ بها إلا عندما تتحرك مثل دبيب نمل، نذرفها بدفء ولذة توخزان العينين وتغرقهما بالخدر. هكذا شعرت بعد أن بكينا، بنوع من الراحة الخفيفة، فمدّت أمي يدها لتمسح دموعي، كما امتدت يداي لتعانقها.

خرجت أمي من صمتها لتقول:

ـ إذاً لو لم أبعث لك البرقية لما جئت إلى هنا؟

وقبل أن أرد عليها أضافت:

ـ أعرف يا ابني، إن الموافقات الرسمية على مجيئك إلى البلاد استغرقت وقتاً.

هززت رأسي بالموافقة: ثم أضفت:

ـ ولكن مهلة ثلاثة أيام لنقل المقبرة القديمة قليل جداً.

ـ لكني سعيدة بأنك ستقوم بنفسك بهذه المهمة، شرف لك أن تنقل رفات أبيك، هذا الرجل الذي فعل كل شيء ممكن من أجلنا.

كان تمسك أمي بالتقاليد أكثر رسوخاً مما عهدته، على الرغم من أن المرء كلما طعن في السن صار أقل تمسكاً بها، لأن ما بقي من العمر لا يستحق كل هذا الاكتراث.

وتساءلت في نفسي:

ـ هل هناك ما يهم الآن وقد بلغنا نهاية المطاف مع أبي؟ أية جدوى في نقل مقبرة امتد تاريخها إلى مئات السنين؟

ثم التفت إلى أمي:

ـ ألم يكن من الممكن أن تجد البلدية أرضاً أخرى لبناء صالة السينما؟

ضحكت قائلة:

ـ تدَّعي البلدية أن وجود المقبرة وسط المدينة يجعل منظرها أكثر قبحاً.

ـ ربما هذا صحيح.

ـ صحيح أو غير صحيح إن السعادة تغمرني الآن لأنك هنا، أكحل عيني برؤيتك، وأقول لك ربما البلدية كانت على حق لأنها جاءت بك إلى هنا.

ابتسمنا قليلا، ولكن جو نقل رفات أبي هيمن على أحاديثنا التي كانت تحملها دجلة وتفرغ أحزاننا من صدرينا وتلقي بها في البحر..

حاولت أن أدخل أقصى ما يمكن من السرور إلى قلب أمي، لذا تذكرت ما كان أبي يقوم به، ومما كانت تحكيه عنه، فقلت لها:

ـ غداً سنذهب إلى زيارة مرقد الكاظمية وسأشتري لك عباءة جديدة.

رأيتها تضحك مثل طفل، معلقة:

ـ لم أزر الكاظمية منذ وفاة أبيك.

هكذا غيَّرت هذه الفكرة مجرى أحاديثنا قليلاً، ولكنها كانت مثل ظل يخرج من أنقاض رفات أبي. وما إن انتهينا من حديث الزيارة حتى تسربت مرارة قديمة إلى القباب المطلية بالذهب الأصفر.

كان الليل طويلاً، أو هكذا كان يبدو لنا وانطلقت أمي:

ـ كما أخبرتك في مكالمتنا الهاتفية، لا تتأخر في المدينة، عد إلى بغداد ـ سرعان ما تنتهي من نقل رفات أبيك، حذار من الالتقاء بزليخة أو بسلطانه.

كانت الغيرة بالنسبة لأمي نوعاً من اللعب أو المباراة.

قلت لها:

ـ المهم هو نقل رفات أبي.

ظلت صامتة ثم تذكرت أصدقاء أبي الذين ذكرتهم لي في مكالمتها الهاتفية.

قلتُ لها بطريقة غير مباشرة:

ـ وهل كان لأبي أعداء؟

ـ كلا، أصدقاء فقط، لم يكن يعادي أحداً فكيف يصبح له أعداء؟

ـ وأصدقاؤه... من هم؟

ـ ستراهم هناك، لاداعي لذكر أسمائهم، سيأتون هم لملاقاتك. على أية حال، إنهم سبعة أشخاص يعرفون أبيك، فيهم من روح أبيك ما سيدفعهم إلى احتضانك.

ـ سبعة فقط؟

هزت رأسها، ثم دخلنا إلى غرفة الفندق، وضغطت أمي على مشغل التلفزيون ولكنها سرعان ما أغلقته قائلة:

ـ صور الحرب تملأ أفواهنا بالمرارة مثلما ملأت أفواه الجنود بالتراب.

كانت الساعة الثالثة صباحا، الهزيع الرهيب من الليل، تهيأنا للنوم، ثم رقدنا على السرير بعد رحلة جوية مضطربة دامت أكثر من خمس ساعات، وكذلك أمي هي الأخرى كانت متعبة لأنها جاءت من ضاحية نائية. كانت الكلمات تخرج من فمينا بصعوبة بالغة، تتأرجح ما بين النوم واليقظة، وأخبار المدينة تتدفق من فم أمي كأنها اختزنت وثائق نادرة في صدرها، تلك الأخبار التي نأت عني لسنوات طويلة!

التفتت إليّ وقالت بحزن:

ـ هكذا تركتني وغادرت دون أن تفكر بيّ.. كنت أنتظر مجيئك كل عام.

عشرون عاماً وأنا أنتظر هذه اللحظة.

صمتت قليلاً ثم رددت الكلام الذي قالته قبل قليل:

ـ لولا نقل قبر والدك لما كنت أتيت.

ثم واصلت عتابها:

ـ لم ترحم قلب الأم.

من الممكن أن يعيش الإنسان وحيداً طوال حياته لكن يلزمه من يقوم بلحده.

ـ عمرك طويل يا أمي.

ـ لم أنس والدك أبداً.. يأتيني صامتاً بين حين وآخر في الحلم، وكأنه يعاتبني ويشعرني بالذنب.

ـ وما ذنبك أنت.. الخمرة هي التي نخرت كبده.

ـ لكن طيفه يزعزع روحي وكأنني كنت السبب في موته.

ـ أبداً يا أمي.. كان يفضلك على نسائه...

بعد لحظات من التأمل في الفناء، كررت القول:

ـ أرجو ألا تلتقي بهما.. لا زليخة.. ولا سلطانة.

فقد سبّبتا لأبيك أكبر آلامه.. وخصوصاً سلطانة التي طعنته من الخلف..

قلت لها مقاطعاً:

ـ دعينا من المشاكل القديمة يا أمي.. كيف حال مدينتنا؟

تأوهت ولم تجب فوراً. اعتقدت بأنها غطت في نوم عميق، لكنها انطلقت قائلة:

ـ رجالها يختفون الواحد بعد الآخر...الأمراض تغزو أرضها.. والأعشاب الضارة تغطي حقولها.

ـ لكني لا أعرف لماذا أصرّ أبي على البقاء في هذه المدينة النائية عن كل شيء.

ـ هل تريد ان تعرف السبب؟

لكنك ستقول لي بأني أكرر المواضيع القديمة.

بعد لحظات صمت، قالت بحدة:

ـ سلطانة هي السبب.

تصور، دخل أبوك إلى بيته ورأى رجلاً ينام معها على سريره.

صرخ: يا ناس، يا عالم، إنها تخونني.

حمل سكينه وهرب وراء عشيقها ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ قرر أن يهجر العاصمة.. جاء إلى مدينتنا للعمل في حوانيت الجيش وإدارة المطعم العسكري.

ـ وهل هجر سلطانة بعد ذلك؟

ـ نعم ولكنها كانت تصر على رؤيته وتأتي إلى هناك لتنغص حياتنا بعد أن تركها عشيقها.

ـ ألم يفكر أبي بالذهاب إلى مكان آخر؟

ـ أين يذهب فقد وجد عملاً هناك وأصبح صديقاً لآمر الثكنة العسكرية، تصور.. أبوك عاشر آمر الثكنة عشر سنوات ولم يكن يعرف ما كان يدور في رأسه.

تعلمت الكثير من صراع أمي مع زوجة أبي المطلقة سلطانه، شهدت فصولها، تعلمت ما معنى الغيرة وما معنى الشك وما معنى الصراع. هذه هي صورة المرأة التي فتحت عليها عيني، وظلت عالقة في ذهني زمناً طويلاً دون أن أتمكن من الخلاص منها في إقامتي الباريسية. هذا هو أبي، قدِّر له أن يعيش في كنف امرأة واحدة أيا كانتْ هذه المرأة، ولكن هذه الرغبة ما كان لها أن تتحقق في الحياة، لذلك مر بنساء كثيرات رغماً عن أنفه، في دوامة الحياة بين مدينتين.

وكثيراً ما كانت نصيحة أمي ترن في أذني عندما غادرت مدينتي، وهي تقول:

إياك أن تقلد أبيك، وتعاشر ثلاث نساء؟

ضحكت في سري: ثلاث نساء؟

لكني أدركت بأن صيرورة الحياة كانت أكبر من أبي لأنه لم يكن قادراً أن يكون هو نفسه حقاً إلا في كنف النساء، ولم تكن حياته سوى محطات فارغة لا يمر بها القطار، لكنها تجعله يفكر بالمرأة و يقع في شراك أخرى. لذلك فإن تراجيديته، إن صح التعبير عنها بهذا الشكل، تكمن في أنه لا يستطيع التخلي عن المرأة التي يتعرف إليها مهما كانت شريرة، فهو يحاول أن يستخلص من أعماقها بذرة الطيبة الصغيرة ويحولها إلى ثمرة ناضجة.

3

فحم حجري، يلتمع بين ألسنة النيران في جوف القطار، مطلقاً صوتاً يشبه أزيز المواقد الشتائية، ولم يكن رأسي قادراً على الاستقرار، دقيقة واحدة، على حافة نافذة العربة دون أن يهتز، واللوائح النحاسية المعلقة على أعمدة حديدية والمبعثرة على طرفي الطريق تشير إلى اسم مدينتي بحروف فاقعة، أزال المطر والريح وحجارة الأطفال بعض حروفها، فتلوت، معلنة يأسها وخيبتها من هذا الاسم، اسم مدينتي، وأنا أرقب الأشجار والنخيل وأعمدة التلغراف الهاربة في فناء صحراوي مهجور، مزيج من الرمال الصفراء والأتربة الحمراء، الهائجة مثل عاصفة صاخبة، تكسح في طريقها كل شيء.

لم أكن أتصور، ذات يوم، بأني سأعود على متن هذا القطار القديم إلى مدينتي.

أمي رمت ثلاثة أحجار صغيرة من نافذة الشاحنة العسكرية التي نقلتنا بعد اجتياح الفيضان لمدينتنا، لترسم بطقوسها

الشعبية مراسيم الطلاق مع هذه المدينة. كنت أنا الآخر أفكر بالقطيعة مع مدينتي قبل رحيلي، ساعياً وراء وهم الحرية، التي مرغتنا بالوحول. كان التجلي نوعاً من ذلك الأمل الذي راودني في مقتبل العمر، ولكي أتنفس قليلاً أرخيت ربطة العنق، وشمرت كمَّي قميصي الطويلين، وذهبت إلى المرافق لأغسل وجهي، فوجدت ملامحي قد عادت إلى انكماش غريب كان متربّاً في المرآة المعلقة فوق المغسلة. عربة المرافق الصحية مليئة بالقذارة واللزوجة والقرف. مختل الهندام، ومبتلاً بالعرق، تمددت على مقعدي، مسترخياً، ومستسلماً إلى هذا الخدر المبطن تحت جلدي وشراييني.

ندمت لأنني لم أستقل سيارة تقلني إلى مدينتي، القطار... ذلك الحيوان الذي لا يكل من حملنا إلى أطول المسافات دون كلل، يتغذى على الفحم الحجري ويلتهم الفراغ، وكلما أكل المزيد تضاعفت طاقته على السير، قلب مدينتنا، وإحدى ديكوراته الزخرفية التي تضفي عليها جمالاً متألقاً، وصوته المبحوح، الذي يتغير بين الحين والآخر. كان القطار يتوجه إلى الشمال حيث تقع مدينتي، وعلى وجه صحيح في اتجاه الشمال الشرقي، ليس بعيداً عن الحدود، وهنا تركت المناظر الهاربة من نافذة القطار تتسلل إلى نفسي، والصحراء المترامية الخالية إلا من بعض بيوت الشعر للبدو وقوافل الغجر ومباني أعتدة السلاح العملاقة كادت أن تخلف في عيني الدموع. وأصبح كل شيء في تلك اللحظات يرتد إلى

اللامبالاة حتى حياتي نفسها وكأنها أصبحت جاهزة للمغامرة. رتابة المناظر تبعث الضجر في نفسي، بعد أن تشبعت بغريزة الهرب من باريس والتزاماتها الفظيعة، ها أنذا أتحرر من كل القيود، وكأن رحلة القطار القديم تتركني بين عالمين، عالم أعرفه تركته خلفي وعالم آتٍ لا أعرف عنه شيئاً. رغبتي تريد أن تمحو ذاكرتي لتقودني إلى عتبة عالم جديد تنطلق فيه الرغبات على هواها. كنت أقبع في زاويتي لا يزعجني شيء، وأجمل ما في هذه الرحلة أني لم أكن أدقق في آمالي، على عكس رحلتي إلى باريس وقت الشباب، ومن خلالها لم أكن أمام محنة صنع ذاتي، فهي قد اكتملت، ونضجت، ولا تفعل شيئاً سوى النظر إلى المصير.

قضبان السكك الحديدية الزلقة تلتمع بين البقع المضيئة، ومطرقات ترن على الدواليب، والقاطرة تحممنا بكل بخارها، وتلاعبُ الظلال والأضواء المتشابكة تبعث التفكير بالحارس الذي يقبع في غرفته يرفع ويخفض قرص المرور الأحمر إيذاناً بدخول القطار إلى المدينة، رحلة وضعتني في مواجهة ذاتي ووقتي، مفكراً بالكلمات والعبارات التي سأتحدث بها مع أهالي المدينة التي غادرتها منذ زمن طويل، مبصراً المحرمات التي أطلقتها أمي في رأسي منذ استلام برقيتها، وهي تحثني على عدم الالتقاء بمطلقتَي أبي، زليخة وسلطانه، لكني كنت أعرف من لياقتي أنني غير قادر على ذلك وفكرت بالأشخاص السبعة الذين يعرفون أبي وحياته. وفي هذه الحالة، كنت

بحاجة إلى بعض صيغ الكلام الجاهز. كنت أغمض عيني، وعلى مد البصر كانت الطيور الكبيرة السوداء ذات الأجنحة البراقة تطير أسرابا وتقف على أعمدة التلغراف أثناء تعبها. ومن أجل أن أرى المنظر بوضوح أكبر، كان عليَّ أن أمسح بخار أنفاسي وأنفاس الركاب الآخرين من ألواح نافذة القطار الزجاجية، في حين تبزغ في نفسي صورة عالم عنيف، مشحون بالحرب، تجعلني عاجزا عن تقديم أي عون لهمْ في تلك القيامة التي أشهد تفاصيلها بعيني. لذا كنت أعود إلى ذاتي كتبرير لهزيمة أعرف أبعادها، في عالم بدائي، كان بودي لو أنسحق معهم في هذا الوحل، لأعلن عن عدم انفصالي عنهم حتى على الرغم من إقامتي البعيدة عنهم. لكني في الوقت ذاته، كنت أحس بقوى فائقة عميقة لحب هذه الحياة، المصنوعة من الدموع والآمال والنكبات. إن أفضل ما أحارب به كل هذا اليأس هو ملكة الوعي الذي لا يمتلكه إلا من غاب عن هذه الأرض، وعاد إليها مسلحا بكل هذا الأمل، لأن كل ما هو موجود مؤقت وزائل، وثمة حياة ستنهض من نهر ديالي وجبال حمرين ووادي الجحيم ومزار القبة الذهبية والقلعة والمقبرة التي تقوم سلطات البلدية باقتلاعها.. وربما من ثنايا رفات أبي الذي جئت من أجله. كانت القلاع العسكرية ومخازن العتاد تمر من نافذة القطار الزجاجية مروراً سريعاً مثل كومة من العشب الأسود طافية في مياه الفيضان، بين الدهاليز التي تتخللها بقع من النور البارد، من هناك يتناهي

إليَّ صوت غناء شاكٍ مُلحّ حزين، جوقة ينشدون من مكان لا مرئي، في مصلى صحراوي أو من تلك المعسكرات المقذوفة في البراري، أشخاص راكعون وآخرون يقبضون على بنادقهم وآخرون يقفون خلف المدافع، لا يذهب إليها شيوخ المدينة لكي يتأملوا بل يذهب إليها الشباب لكي يموتوا.

كنت أفكر بكل شيء إلّا بتحويل المقبرة.. تلك التي أنشأها الأجداد، وأقاموا لها أسيجة من الحجر وحكايات العجائز وزرعوا أطرافها بأشجار الصنوبر، التي تظلّل أغصانها رؤوس المشيعين وتحميهم من ضربة الشمس أثناء دفن الموتى، وشيدوا على أرضها غرفة زجاجية لغسل الموتى المجهولين أو المنبوذين، وحفروا بئراً يتدفق بالمياه الجوفية الينبوعية من أجل غسل جثث الموتى وتطهيرها قبل مواراتها في مساكن النمل الأبدية.

كانَ صرير عجلات القطار متواصلا في إصدار أصوات غليظة خشنة فيما أخذت أشعة الشمس تقوم بتسخين سطوح العربات، حمامات وأفران غاصة بالمسافرين والجنود المجازين، غناء ينطلق من أجهزة الراديو الصغيرة التي يحملونها وأفراد مفارز الحرس وفرق التفتيش، ذوي اليافطات الحمراء، يفتشون عن الجنود الهاربين في عربات القطار.

انخرطت، دون إرادتي، مع أولئك الجنود ذات يوم. اكتظت بنا الشاحنات. أبناء الشمال ذهبوا إلى الجنوب. وأبناء الجنوب ذهبوا إلى الشمال. غصّت بنا القاعات. وامتزجت

أنفاس ما يقارب خمسمائة جندي في قاعة واحدة، برد يتسلل من فتحات النوافذ العارية من الستائر، يتنفسون، يشهقون، يبكون، يشخرون، يحلمون.. مرّة واحدة. وفي الفجر، كنا نستفيق، بلا سبب أو جدوى. ومن كان يجرؤ على التأخر؟ كان العريف لا يتوانى أن يسكب صفيحة الماء على وجوهنا التي التصقت بها بقايا حلم أو بقايا حليب الأم. كان علينا أن نستيقظ قبل طلوع الفجر الذي أصبح مخيفاً وقبيحاً لا لشيء إلّا لأنك تقوم بأفعال عبثية في غير وقتها: تحلق ذقنك، تنظف أسنانك، تصبغ حذاءك، تقف في طابور جائع. قف جيداً، لا تحن قامتك يا نطفة الشوكولاته. هيّا تعلموا الأكل الجماعي ولا تتقززوا من أظافر الجنود الآخرين. وحين تنتهوا من الأكل، اغسلوا الصحن الكبير بالرمل. فالدسم لا يذهب إلّا بالرمل. أنتم في مصنع الرجولة، لا تخافوا من البندقية.. فإذا خفتم منها، فسينعدم وجودكم على قيد الحياة طبعاً. اسمعوا جيداً، أيها المراهقون، أنتم لستم في أحضان أمهاتكم الآن. عبارات ترسخت في ذاكرتي. من كان يجرؤ على رفض الأوامر؟ من يعص الأوامر العسكرية: يأكل التراب.

كانوا يطلقون الرصاص فوق رؤوسنا لكي نعتاد سماع تلك السمفونية العسكرية، وسط الوحول وشهية أكل الثعابين والهارب من الخدمة العسكرية لا يساوي سوى طلقة واحدة، فإذا كنت لا ترتدي البدلة الخاكية، فأنت امرأة، جبان، سافل، كلب، جرذ وخائن.

هل كنا يوم الحشر أم في يوم القيامة؟

الأنفاق المظلمة المتكاثرة التي يمرّ فيها القطار تسحب الذاكرة من بطون السنوات، وتضعها في نور متألق.

من بعيد لاح شبح مدينتي مثل كثبان رملية هائجة.. وتراءى لي القوس الكبير الذي ينتصب عند مدخل المدينة الذي ظهر كمقصلة تشتهي أكل الرؤوس التي تمر تحتها.

سرعان ما أدركت بأنه لم يمض على تحرك القطار سوى ساعة واحدة، دخان الفحم الحجري يخرج من جوف القطار، غيمة سوداء، حزينة، تائهة في السماء، تذكرني بالمسافات.

كان الركاب يغطون في نوم عميق من تعب السفر ويبدو أنهم جاؤوا من مدن بعيدة ومنذ ذلك الحين رحت أتساءل فيما لو كان الإنسان يتحول إلى كائن خشبي عندما ينام. كنت أشاهد تلك الأشياء الساحرة: قرون من الزمن.. كانت تختزل في ثوانٍ قليلة. يحملنا القطار على ظهره كما لو أن هذه هي مهنته الأبدية، يتوقف في المحطات كأي حيوان أليف، وحين يسمع صوت الجرس يتحرّك ويمضي بنا.

بين صخب المسافرين وقلق الجنود الملتحقين بثكناتهم، تناهت إلى سمعي كلمة (مقبرة)، أرهفت السمع، معتقداً بأن جميع المسافرين جاؤوا مثلي لنقل رفات موتاهم. كان الرجل العجوز الذي يجلس قبالتي، وترافقه فتاة سمراء، شابة تبدو في العشرين من عمرها، أتصورها ابنته لولا نظراته الشبقية نحوها، قد وضع يده اليسرى على جبهته، وقلّص حدقتي عينيه، وراح

يتفرس في وجهي كأنه يعرفني فيما انفرج وجه زوجته عن ابتسامة خفيّة زادت من سحرها.

قال لي فجأة:

ـ أعتقد بأنك تقصد المدينة من أجل نقل المقبرة.

قفزت من مقعدي قائلاً:

أعتقد أن جميع المسافرين جاؤوا مثلي لهذا الغرض.

بعد لحظات صمت وتأمل، قال:

ـ يا للعجب. كأنكما تفاحة مقسومة إلى نصفين.

ـ هل تعرف أبي؟

ـ وكيف لا أعرفه؟

ـ كان أبوك علامة من علامات المدينة.

غمرني ابتهاج هائل وراح الزمن ينساب بسرعة مذهلة بين عجلات القطار الذي يلهث ويطلق صفيره كسعال عجوز مصاب بالسلّ.

قلت في نفسي:

ـ ربما عثرت على أول خيط أنسج به حياة أبي المجهولة.

أخذ الشيخ يهز رأسه، متمتماً بكلمات مبهمة دون أن يعبأ بزوجته الشابة والتفت إليّ ضاربا كفّاً بكفّ قائلاً:

جاء أبوك وأمه العجوز مع القطعات العسكرية التي فتحت المدينة.

ثم أضاف مبتسماً:

ـ كانت جدتك ترتاد المقاهي وتتصرف كالرجال.. وإذا تخاصمت معهم، ضربتهم بعصاها على خصيهم.

انفجرنا بالضحك بينما غطت الزوجة وجهها بوشاح أبيض خجلاً.

كان النعاس لا يترك هدنة لأجفان الشيخ، إذ غطّت جفنيه طبقة بيضاء تشبه القيح بينما كانت زوجته تترنّح في مقعدها، ناظرة بعين إلى زوجها النائم، وبعين أخرى إلي، وكلما دخل القطار في منعطف، كنا نغيب في ظلام ليلكي في الأنفاق، تحفّ بي طراوة ركبتيها اللتين كانتا تلتصقان بيّ. وكلما كان الشيخ يفتح جفنيه، كان يرمي بكلمة أو بعبارة عن أبي في مخيلتي. كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن أبي كان مثل آلاف الناس الآخرين الذين عاشوا وماتوا في هذه المدينة، ولكن عبثاً، والشمس تتماوج وراء التلال، وتغسل بأشعتها سطوح البيوت الطينية، ثم تختفي. وقبل أن يدخل القطار في مدخل المدينة الحجري، أطلق صفارته، معلناً الحرب على صمتها وسباتها الأبدي، فيما انطلقت الجوقة تنشد من جديد، وكان إنشادها أشبه بصرخة طائر، صرخة ثاقبة، متكررة، وملحة، ترتفع إلى الله بالضراعة، أو لعله كان نوعاً من الكدح، ينزل أهالي المدينة من القلعة، شيوخاً وعجائز وأطفالاً يكدحون مثل خيول مذعورة. هكذا تراءت لي رؤية العالم من النافذة، اندثار عالم عرفته قبل أكثر من عشرين عاماً وانبثاق عالم جديد مثل هلوسة اللحظة، ثم فهمت بأن نقل المقبرة القديمة هو الذي

بثَّ كل هذا الذعر واللغز، لغز أبي، الذي لا يمكنني حلُّه بمفردي.

وقلت في نفسي:

المفتاح موجود هنا في مكان ما، ولكن أين؟

لا أكاد أرى أي معنى لكل أفعالي، مغادرتي للمدينة والعودة إليها، هل أنني أهذي أم ماذا؟

لا أدري كيف خطر لي مصيرانا، أبي وأنا، الحب والموت، ثنائي زائف وأصيل.

هل يمكنني أن أحوِّل موت أبي إلى شيء أستطيع تحمُّل تأمله؟

كان ثمة حاجز لا بد من اجتيازه، ولكني لا أستطيع أن أجتازه بهذه البساطة، هل كان من الممكن أن أشق نفسي نصفين وأرمي النصف السيء جانباً؟

الكائن البشري شرك، مستنقع، غابة، مقبرة، رفات... وجشع تحويل المقبرة القديمة، وطحن عظام الموتى في المطاحن، وتعذيب أرواحهم من جديد، لغز بحثت عنه طيلة كل هذه السنوات، ولعلني أجده في المقبرة القديمة، لكن صيحتي غير مسموعة، كيف أتمكن من سماع صيحة أهالي مدينتي، وهم يواجهون الموت.

هكذا تلاشى آخر ما كنت أعتبره مقدساً وشعوري بالزمن أصبح مشوشاً منذ وطئت قدماي أرض المطار، أختلس النظر كأي متجسس، على حياة أولئك البسطاء أبناء مدينتي، لا أظن

أنني سأقدر على الحديث معهم، لكن شهوة التعرف على أبي كانت الدافع الوحيد الذي سيجبرني على الخروج من صمتي. وقبل أن يتوقف القطار وهو يعبر الجسر الذي يؤدي إلى المحطة، بدت لي نوافذ المنازل المضيئة وكأنها عيون غامضة جوفاء توجه إليَّ الاتهام وتحاصرني، كما لو تقول بأنني تركتهم للكوارث والحروب، وشعرت بتوتر جسدي داخل ملابسي، صوت يهمس لي خافتاً ويقول:

كيف جئت إلى هنا؟

لكني لم أكن مجرماً، هل جريمتي أنني تركت مدينتي في أوج أزمتها، وبقيت كالمتفرج، أنظر إلى كوارثها وحروبها عبر شاشة التلفزيون عن بعد خمسة آلاف كيلومتر.

وماذا أيضاً؟

زاد الهمس خارجاً من عش صمته:

لكنك لم تصل إلى مدينتك في الوقت المناسب.

ودفاعاً عن نفسي، قلت بأني وصلت في تمام هذه الساعة من أجل نقل رفات أبي إلى المقبرة الجديدة، والتأكد من أن مدة نقل المقبرة القديمة انتهت أم لا، ومن هنا يمكنني أن أتلمس طريقي.

4

وصلنا في المساء حيث كانت محطة القطار شبه مهجورة وخالية إلّا من بعض العربات التي تجرها الخيول لنقل المسافرين إلى وسط المدينة. استقل الشيخ وزوجته الشابة عربة وغابا في غيمة من الغبار. حاولت جاهداً أن أقرأ اللافتة النحاسية التي كتب عليها اسم مدينتي لكن الغبار غطى معالم الحروف، فلم أعد أتبين شيئا منها، لم تكن الإنارة كافية للوصول إلى تلك اللافتة، لذلك لم أتمكن من قراءتها، ولكني في نهاية المطاف وجدت أن الأحرف قد بهتت، فتحسست جيوبي فلم أجد أي عود ثقاب، ولم أستطع أن أفك حرفاً واحداً من حروفها، ومن ثم سألت أحد المسافرين فيما إذا وصلنا إلى مدينة جلولاء.

فقال لي:

نعم إنها المدينة التي تقصدها.

وضعت حقيبتي على الأرض الترابية، محاولاً التعرف على

مكان طفولتي، ولم أكن أتخيّل، لحظة واحدة، بأن هذه المحطة ستختفي هكذا. من بين الريح، ناداني صوت مبحوح، التفت حولي، فلمحت حوذياً هرماً يقف بجوار عربة مزينة بنقوش، يجرها حصانان غارقان في الانتظار، وهو يحمل فانوساً، هرع إليَّ، وأخذ حقيبتي، ووضعها بجواره، ثم بدأ يقود حصانيه الهرمين، وينهال عليهما بسياط لاذعة وهو يتمتم:

اللعنة عليكما.. لاتصلحان إلّا للعلف.

وانطلق بنا في منحدر ترابي، سألته:

ـ ماذا حلّ بمحطة القطار؟

هزّ رأسه وأجابني:

ـ هذا آخر قطار يصل المدينة.

ـ آخر قطار!

ـ أجل. قطعوا أرزاقنا.

ـ ولماذا؟

ـ قرروا إغلاق المحطة.

ثم تنهّد غاضباً، وهو يضرب بسياطه الصبيان الذين راحوا يتعلقون بمؤخرة العربة في الأسلاك الشائكة:

ـ اللعنة عليكم، يا أولاد الحرام، أيتام الحروب والهزائم.

ثم أضاف:

ـ أغلقوا المحطة لأن مصلحة سكة الحديد لم تعد تحقق أرباحاً، أصبح كل شيء عندنا يقاس بالربح.

ـ وكيف تذهب الناس إلى العاصمة إذاً؟

ـ بالحافلات اليابانية.

ثم استرسل:

ـ من يفكر بحياتنا، حتى السياح امتنعوا عن المجيء إلى هنا.

ترنحت العربة وانحرفت عن الطريق المعبدة إلى المنعطف الترابي، تتقافز عجلاتها فوق الحصى الناعم، بعد أن مرت بالبالوعات المفتوحة، مثيرة عاصفة من الغبار فيما قفز الحصانان من ضيق الطوق الذي يلتف حول عنقيهما، ضاغطاً على أوعيتهما الدموية الغليظة البارزة.

وما إن اقتربنا من الدخول إلى المدينة حتى قال لي:

ـ كما ترى الهرج والمرج، إنهم ينقلون المقبرة، لعنهم الله إلى يوم القيامة.

ـ ومتى تنتهي المدة؟

ـ غداً آخر يوم، وبعدها تبدأ البلدية ببناء صالة سينما.

وهنا أدركت أنني جئت في الوقت المناسب تماماً وإلا ضاع قبر أبي مرة واحدة وإلى الأبد.

سألت الحوذي:

ـ وهل بدأ الناس بنقل رفات أمواتهم؟

ـ أجل يا أستاذ ولكن ليس كل الناس، كثير منهم ترك قبور أهله على حالها، لترتفع عليها جدران صالة سينما.

ثم تنهد بحزن قائلا:

ـ المدينة كلها أصبحت مقبرة فما الفرق بين هذه المقبرة والمقبرة الجديدة، الفرق الوحيد هو الاسم، لم يعد الموت يفزعنا، ياأستاذ، بات أهالي المدينة يتمنون الموت، فإذا وافتنا المنية مبكراً كان ذلك خيراً لنا، وها أنت ترى أننا نقاتل ونقتل منذ أعوام طويلة، لأن حياتنا وحياة الآخرين لم يعد لها قيمة.

تأملت قليلاً لغة الحوذي المفعمة بالتورية، بالرمز، بالتلميحات وبالنهايات المفتوحة والمغلقة، وتأكدت بأن الموت ما هو إلّا مرآة لحياة العراقيين، وحيالها ينغلق العراقي على نفسه ويتجاهلها. علاقتنا بالموت أصبحت حميمة، وربما أكثر حميمة من علاقة أي شعب آخر، لكنها علاقة عارية من المعنى، وخالية من الشهوانية لأن الموت العراقي عقيم، لا يتناسل، وإلّا لماذا تموت ثوراتنا في مهدها في الوقت الذي يظهر عندنا قتلة عباقرة ومنفّذو حروبٍ مهرة؟

ولأنني شردت في أطياف هذه الفكرة ولم أرده، قال لي:

ـ لماذا سكت ياأستاذ؟

ـ هل يوجد فندق في المدينة؟

ـ ليس لدينا سوى فندق واحد، وسآخذك إليه، وصاحب الفندق من أصدقائي، وسأجد لك غرفة.

ـ هل يمكن أن نجد غرفة في هذا الوقت؟

ـ وإذا لم تجد غرفة في هذا الفندق فبيتي مفتوح لك، أنت ضيفي منذ هذه اللحظة.

ـ هذا جميل منك.

ـ يبدو أنك لم تأت إلى المدينة منذ زمن طويل هل أنت من هذا البلد؟

ـ أجل لكني مغترب.

ـ هل لديك قبر تنقلة هنا؟

ـ أجل ياسيدي جئت لنقل رفات أبي ولم أر هذه المدينة منذ سنوات طويلة.

ـ لم يكن وجهك غريب عني يذكرني بشخص أعرفه.

ثم قال بتنهد:

ـ لم يبق سوى الأشرار والقتلة وسماسرة الحرب في المدينة. لا تقلق.

ـ هل تريد أن نتوجه إلى الفندق؟

ـ أجل.

هز الحوذي رأسه هامساً كأنه يخاطب حصانيه، وصوت حوافر الحصانين يرن فوق الألواح الخشبية التي تغطي الجسر الذي يعبر الوادي، وكأنه يكلم حصانيه، ويجرهما من رسنيهما. ولم يكن يعلم بأن نقل المقبرة يهيمن على كياني كله، فقلت له، متسائلاً:

ـ هل مايزال الوادي يسمى بوادي الجحيم؟

ـ ولماذا يتغير اسمه ما دام الجحيم يلاحقنا في كل مكان؟

ـ قل لي من قرر نقل المقبرة؟!

ـ وهل نعرف نحن من يحكم في المدينة؟

كل واحد يدعي هو السلطة، مدبر البلدية، آمر الثكنة العسكرية، رجال الأمن، الشرطة، ناظر المحطة، رئيس الحزب، كلهم يأمرون ويحكمون، وكلهم يتصارعون مع بعضهم، آه! من يفكر بالمقبرة هذه الأيام (...) إنهم ينقلون عشرين، خمسين، مائة جنازة إلى هنا في اليوم ويطمرونها في حفر جماعية. هل سمعت بحيّ الشداء؟ ثم أضاف حين لاحظ صمتي:

ـ من يفكر بالموتى هذه الأيام يا أستاذ؟

لكل منا ميتة ينشدها، ميتة يصنعها، سواء كانت ميتة بطل أم ميتة كلب. دعني أقول لك، إن الرجال الذين يموتون في ساحات القتال أو النساء اللاتي يمنن في ساعة الوضع والإنجاب، يدخلون إلى باطن هذه الأرض، ومن يموت ميتة الكلاب من الخونة يتوارى في هذه الأرض أيضاً، والآن وهم ينقلون المقبرة القديمة ويهدمون أسوارها لتختلط شواهد قبورها، ولم يعد أحد يتعرف على الآخر، من هو البطل ومن هو الكلب، أصبحوا عبارة عن تلال من عظام وتراب، وقوائم الخونة يمكن أن تتحول إلى قوائم الشهداء بين لحظة مزاجية وأخرى. أين القيم التي يموت من أجلها شبابنا، وهذه الحرب التي نعرفها، يأتي يوم وتكتب الجرائد: توقفت الحرب. آنذاك، أين تذهب الأرواح المعذبة ومن يعوض دماء شهدائنا؟

وبعد فترة من صمت انطلق:

ـ لم تقل لي من كان والدك، رحمه الله؟

ما الذي يمكن أن أقوله لهذا الحوذي الهرم، هل أشرح له قصتي، أم أظل ساكتاً إلى أن نصل الفندق، لكن سرعان ما خطرت لي فكرة أن يكون هذا الحوذي أحد أصدقاء أبي الذين ذكرتهم لي أمي، من يدري؟ ولكن ماذا ينفع ذلك؟ إنني أقف أمام رجل تحدث لي قبل قليل عن لامبالاة الموت ولامبالاة الحياة، وقد استوقفتني عبارته: إن الموت مرآة تعكس كل ما تأتي به الحياة من إيماءات عقيمة... وقلت في نفسي: مع من أتحاور، مع حوذي أم فيلسوف؟ هل أيقظت المقبرة في نفوس الناس هذه الجمرات التي كادت أن تنطفئ مع امتداد خنادق الحرب على مدى آلاف الكيلومترات؟ كيف لي أن أجيب هذا الحوذي؟

دعني أقول له ما يلي:

ـ إنني ابن أول رجل وطئت قدماه هذه الأرض مع الجيش، وعمل في إدارة حوانيت الجيش والمطاعم العسكرية.

صرخ الحوذي ونط الحصانان من سحب الرسن المفاجئ:

ـ لا تكمل، عرفت من تكون.

وبعد تأمل قصير قال:

ـ ما يزال لأبيك أصدقاء يتذكرونه بنبل في هذه المدينة.

فقلت متلهفاً بعد أن بدأت المدينة تعطي لي نفسها من خلال هذه الأحاديث:

ـ هل أستطيع الالتقاء بهم؟

ـ بالتأكيد سيأتون لملاقاتك في الوقت المناسب، سيتعرفون عليك حالاً، دون مشقة، ففي مثل هذه الحالة، يفتح العراقي دواخله نحو الخارج لأنها فرصته الوحيدة التي يجهر بما في قرارة نفسه، ولكي أكونَ معك صريحاً لولا حديثنا عن نقل المقبرة لما تكلمنا كل هذا الحديث. لم يتفوه أبناء مدينتك إلا بكلمات المجاملة القسرية، ثم تعالت صرخاتهم لتبلغ عنان السماء مثل تلك الصواريخ التي استأثرت بإعجابنا مثل الألعاب النارية في بادئ الحرب، ثم أخذت تولد فينا شروراً مقيتة، وتنخر أجساد أولادنا، وتخرب خصب الأمهات والأرض... هكذا بدأ كل واحد منا يهجر نفسه ويعيش عزلته وعقمه... لم يكن هذا التفكير ينتهي لو لم يجذب نظري من بعيد، حشد من الصغار يركضون وراء شاحنة كبيرة، تظهر على جوانبها المسطحة، اللماعة، رسومات لفتيات، نصف عاريات، يحملن سياطاً يضربن بها أسوداً طائرة: سرعان ما تراءى لنا المشهد بوضوح: رجل، ذو كرش منتفخ، أصدر أوامره، أفرغ العمال الشاحنة من صفائح حديدية، وصناديق، وأعمدة خشبية وخيام، ولفات حبال، ومصابيح ملونة في إحدى الساحات، رجال يرتدون سراويل قصيرة، آخرون يقرعون الطبول بعصي رفيعة، وآخرون يعزفون الموسيقى، ونساء يرتدين فراء حيوانات وحشية.. وأخريات عاريات رُسمت على أفخاذهن أشكال أفاع وعقارب، سيرك ضخم دخل المدينة.

ظلّ الحوذي فاتحاً فمه، ثم سألته:

ـ ما هذا يا حاج؟

ـ إنه السيرك يا أستاذ.

وأضاف:

ـ لم نكن نعرف السيرك بل الغجر الذين يعزفون على الربابة، ويقدمون نساءهم للزبائن.

صمت الحوذي للحظات:

ـ ربما جاؤوا بهذا السيرك ليرفهوا عن الجنود العائدين من الحرب.

لم نكن بعيدين عن الفندق. نزلت من العربة، ناولني الحوذي حقيبتي، فأعطيته كل ما كنت أملك من دراهم في جيبي. استأجرت غرفة، كنت متعباً، ألقيت نفسي على كرسي قبالة النافذة، فتراءت لي أسوار المقبرة، أرسلت نظري، وأدركت أن مهمتي بدأت الآن.

سأنهض في الصباح، وأبحث عن حفار قبور ليساعدني في تنفيذ مهمتي: نقل رفات أبي إلى المقبرة الجديدة.

5

لمحت رجلاً بديناً وقصيراً، أصلع الرأس يقف عند بوابة الفندق، في عتبة السلالم الإسمنتية التي ترتفع إلى مدخله، وفي تلك الأثناء نزل الحوذي، وأراد أن يأخذ مني الحقيبة لينقلها إلى الطابق العلوي لكني رفضت. رحب بي صاحب الفندق، وصعدت السلالم الإسمنتية، وطلبت حجز غرفة لي، فسحب الموظف المفتاح المعلق في اللوحة الخشبية وأعطاني إياه، فذهبت إلى غرفتي متتبعاً أرقام الغرف. وبعد أن استرخيت بملابسي على السرير الضيق، شعرت بالجوع ينفذ إلى بطني، لكنني ترددت من النزول وفكرت أن آكل أي شيء الآن.

قال لي موظف الاستعلامات: دجاج مشوي، لحم مسلوق، أرز، باقلاء، زيتون.

بعد أن طلبت الطبق المتوفر، فكرت بمئاتني التي كادت تنفجر، ممر مظلم يؤدي إلى غرفة المرافق الجماعية في

الطابق، الرائحة وحدها قادتني إلى ذلك المكان الذي لم أجد فيه لا ماء ولا أوراق تواليت فيما عدا حشرات شرسة كانت تحوم على الجدران باحثة عن فتات الطعام. بعد أن قضيت حاجتي، عدت إلى غرفتي، لكن امرأةً عجوزاً، جذبت نظري، تلملم عباءتها على جسدها المكوّر أمام إبريق شاي يغلي على موقد فحمي، تحركه بمنخس حديد، ينعكس ضوؤه الأحمر على تجاعيد وجهها، لم أقاوم رائحة الشاي العابقة، توقفت بجوارها، وحييتها، فناولتني بيدها المتعرقة كوب الشاي، وهمست في أذني كأنها تبوح بسرّ دفين:

ـ متى تنقل رفات أبيك؟

كاد كوب الشاي يسقط من يدي.

أمعنت النظر في عينيها الذابلتين معتقداً بأنها خلطت بيني وبين شخص آخر.

قلت لها:

ـ وهل تعرفين أبي؟

كان عليّ أن أصرخ في أذنها حتى أزاحت الوشاح الذي غطت به رأسها.

ثم أجابتني:

ـ إذا كنت رجلاً فحافظْ على روح أبيك.

أطبقت الدهشة عليّ فيما قالت لي:

ـ أنت تشبه أباك، هرب من مدينته كما هربت أنت من مدينتك.

كاد لساني ينعقد، ثم صرخت في وجهها مدافعاً عن نفسي:

ـ من أنتِ يا حاجة؟

تنهدت بحزن وهزّت رأسها:

ـ إني خادمة أنظف غرف الفندق وأبيع الشاي كما تراني.

غادرتها والألم يعتصر قلبي.

أصبح الطبق الذي وضعوه على الطاولة في غرفتي، بارداً ومقزّزاً لكني التهمته بكامله.

كانت طوابق الفندق كلها صاخبة، رجال السيرك الذين رأيتهم قبل قليل، سكنوا الغرف المجاورة، ولم تتوقف ألسنتهم عن هذر الكلمات الفارغة، ناشرين صخبهم في الغرف الأخرى دون أن يستجيبوا إلى نداءات صاحب الفندق بالهدوء.

متى يهجع أولئك المسعورون الشياطين الذين نزلوا على المدينة فجأة؟

كانوا منهمكين في غسل الأصباغ عن وجوههم ونفض الغبار عن سراويلهم اللّماعة بعد سفرة متعبة من العاصمة.

دقات على باب غرفتي تناهت إلى سمعي من بين ضجيج التلفزيون الذي ينقل صور الحرب، صاحب الفندق يريد التحدث إليَّ وهو يقول:

ـ إن لم تكن متعباً، يا أستاذ، أود التحدث معك، إذا شئت في صالة الفندق أو نشم الهواء الطلق، لم أتردد في

الموافقة على التجول في الشوارع التي لا تتوفر فيها أعمدة الإضاءة، فقال لي صاحب الفندق:

ـ عرفتك في الحال عندما نزلت من العربة. زمن طويل مضى. هل تغيرت المدينة في نظرك؟

هززت رأسي موافقاً على هذه الفكرة ثم أضاف:

ـ اعتقد أهالي المدينة بأنك هربت، قلنا لهم ولماذا يهرب، ولكنهم رغم ذلك جاؤوا إلى بيتكم وحجزوا أوراقك وكتبك، والذين بقوا في المدينة ولم يهربوا ندموا فيما بعد.

وبعد صمت قصير أضاف:

أشياء فظيعة حدثت بعد سفرك، أنت تعرف أهالي مدينتك، أنت تعرفهم أكثر من الآخرين، إنهم يتأملون أطيافاً تشبههم، كانوا يعتقدون بأنك أصبحت راعياً لهذه المدينة، لذلك ينبغي عليك أن تبقى لصيقاً بها إلى يوم الممات وإلا فأنت لست ابن هذه المدينة، لا يوجد رجل لا يعيش بلا رفقة، إنني أتحدث عن والدك المرحوم، كانوا يضايقونه لأنه يلتقي بنا نحن أصدقاؤه، وحجتهم إننا نحمل الأفكار نفسها، كانوا يتصارعون فيما بينهم للإيقاع بنا، ولكن من هذا الصراع بين الوحش والوحش، كان يتفق أن يخرج ملاك، يعفي عنا ويجعلنا نتجول أحراراً هنا، لكننا لم نكن ننسى هذه السياط المسلطة على رقابنا، وتلك العيون الزجاجية التي تراقبنا ليل نهار، أحدنا ضربوه على أذنه وسكبوا عليه الماء البارد في

الشتاء حتى صار أخرس وأطرش، وهو لا يستطيع أن يتخاطب مع الآخرين إلا عن طرق الكتابة على الورق.

ـ وماذا يريدون منكم وأنتم تعيشون هذا البؤس؟

ـ نحن ارتضينا بهذا البؤس لكنهم غير راضين علينا، ورضاهم لا يأتي إلا حين نختفي من هذه الحياة مثل والدك الذي لم يتخلص من هذه المدينة إلا عندما واريناه التراب، وهاهم ينبشون القبور من جديد، ليضيفوا مزيداً من العذاب إلى هذه الأرواح.

ـ ولكن ما الذي فعله والدي؟

ـ لا شيء، سوى أنه أحب هذه المدينة، وكان يريد لها الخير. أنظر إلى هذا الوادي الذي يسمى بوادي الجحيم، قال أبوك ذات مرة، لو كان مدير البلدية ذكياً لأطلق على هذا الوادي اسما آخر، أصبح هذا الوادي أشبه بالمستنقعات التي تنقل الأمراض على مختلف أنواعها.. هكذا... كانت بعض الأسماء تزعجهم، وتظهر عجزهم، لذا ظلوا يحيكون مؤامراتهم حتى أوقعوا به، لا تصدق كل ما قالوه عن والدك، مثلا لم يكن والدك يحب الغلمان، اتهموه لكي يبعدوا الناس عن الالتفاف حوله، قالوا إنه شاذ، في فكره وممارسته، لكن أهالي المدينة بأكملها يعرفون هذا التزييف حق المعرفة، ولم يتوفر دليل واحد على صحة ذلك. لكنهم كانوا يخشون من انتقال أفكار والدك إلى رؤوس الآخرين معتقدين بأنه يؤلبهم ضد سلطة البلدية. والشيء المؤكد الوحيد الذي نعرفه هو

درجة الكراهية التي تضمرها البلدية لوالدك الذي أصبح مدمناً على الخمر من إحباطه، وأصبح الغائب السرمدي، يخافون حتى من ظله، ودفعوا إمام المسجد أن لا يقرأ الفاتحة على جثمانه عند وفاته باعتباره مات سكيراً وقد يكون الخمر نوعاً من العقاقير ولكنهم يجهلون بأن لا أحد يتدخل في الإيمان، والمدمن على الخمر يمكن أن يكون مؤمناً، هكذا... أرادوا أن يغلقوا الأفواه.

ثم قال:

ـ إذاً جئت لكي تنقل رفات أبيك من المقبرة القديمة إلى المقبرة الجديدة.

ـ أجل، هذا ما كلفتني به أمي، كما أردت أن أقوم بنفسي بهذا الواجب، عسى أن أؤدي قسطاً من واجبي تجاهه.

ـ كان والدك يحلم برؤيتك ولكن القدر شاء...

ـ أعرف ذلك جيداً، ولكن هل سيكون نقل رفات أبي سهلا في نظرك؟

ـ ولمَ لا ننساهم كلنا ولكن في الخفاء، لا نريد أن نوقظ الوحش فيهم من جديد، لقد نسيونا بوفاة والدك، لا تثق بأنهم يقولون لك بأن الأوضاع تغيرت نحو الأفضل، هذه مجرد مظاهر، وحالما تقشط السطح يظهر لك الجوهر، المعدن الرديء، لم تغيرهم طوابير الموتى، ولا لعنة الشياطين ولا براءة الملائكة. كانوا يعتبرون أباك كائناً غامضاً، لأنه لم يكن ينتمي إلى حزب معين، والأحزاب هنا تقدم قوائم بأسماء

أعضائها، وكل شخص يخلو من هذه القوائم يعتبر عدواً، هذه هي الفكرة، هل فهمتني الآن؟ يريدون أن يضعوا كل شخص في صندوق زجاجي حتى يروا صورته جيداً ومن يقف خارج هذا الصندوق فهو ضدهم.

ـ أجل، هذا واضح ولا يحتاج إلى تفسير.

ـ كان في أوقات كثيرة يريد أن يفعل ما فعلته أنت، أن يغادر البلد إلى الخارج ولكنه... كان يعاني من عبء نسائه الثلاث...

ـ أعرف أن كل إنسان محكوم بظروفه.

ـ أخذوا يراقبون كل من كان يزوره.

ـ هل تعلم أن الغموض الساحر لبعض الكلمات المحرمة والسرية في لغتنا هو الذي يمنح الثقة إلى الناس، كلمات لعينة ما زلنا نتلفظها بصوت مسموع حين نكون مخمورين ومخدرين وما كانوا يحسدوننا عليه، كنا نتحلق حول طاولة واحدة مع والدك في الحانة أو نجتمع في بيوت أحدنا لكي نلعب القمار للتسلية، لم يكونوا يعرفون أن ما يوقف الدورة الدموية هو الملل والرتابة والنوم المبكر.

ـ هذا شيء عجيب.

ـ بل وفظيع لأنهم كانوا يعتبرون كل لقاء لنا معه بمثابة اجتماع حزبي، لذا كنا نلجأ إلى الرموز كحل للتفاهم بيننا.

ـ حدثتني أمي عن كل ذلك بشكل غامض.

ـ وكانوا يحاربون والدك لأنه يرفض أن يقول إلى أية قبيلة

ينتمي ولا يسمي عشيرته، وقال لهم بالحرف الواحد، أنا رجل مدني لا أؤمن بالقبيلة ولا بالعشيرة، فاتهموه بأنه ليس من هذه البلاد بل حلَّ عليها طارئاً حتى ولو طحنت عظام أسلافه في هذه الأرض.

ـ لكن زمن العشائر ولى منذ زمن.

ـ أبداً يزداد رسوخاً يوماً بعد آخر.

ـ هل كان والدي يتذكرني؟

ـ كيف لا؟ كان يفكر بك يومياً، ويتصور لون شعر رأسك، ولون عينيك، وطول قامتك، وهكذا.. فقد أوصانا أن نرعى طموحاتك، لكنك رحلت مبكراً من هنا، وكان الأفضل أن تقوم بذلك، إنهم يحترمونك اليوم لأنك قطعت شوطاً من تعلم اللغات وعاشرت الأجانب، أنت في مقام آخر يا ابني الآن.

ـ وهل كنتما تتجولان هنا في هذه الشوارع والطرقات؟

ـ كيف لا؟ في مثل هذا الوقت كنا نتمشى كما أتمشى معك الآن.

وبعد أن أطلق حسرة أضاف:

ـ وقع والدك مريضاً ولزم الفراش شهراً، وعندما شفي، كانت التلال المحيطة بالمدينة قد أزهرت، ولم نتحسس موسم ربيع مثل ذلك، فطلب مني أن أقوم بجولة معه في تلك البراري، فقام بقطف حزمة من الأزهار البرية الصفراء، وشدها في باقة، وجاء بها إلى أمك، فتعجبت من ذلك، وقال لي

آنذاك: إن الأزهار تزيد المحبة بين الرجل والمرأة. ولذلك عندما أخذت باقة من هذه الأزهار قالت لي زوجتي لمن أتيت بهذه الأزهار، هل أصبحت مجنوناً؟ من يقطف الأزهار من التلال ويأتي بها إلى البيت؟

تسلل الضحك إليَّ لأول مرة، في مثل هذا الجو، وكان هدوء الليل يشبع المدينة بالتأمل وهنا شعرت بأنني وحيد، وأدركت وحدتي، وكوني منتزعاً من عالم ومقذوفاً إلى عالم آخر، كنت الكائن الوحيد الذي يستشعر الوحدة في مدينة تبث القشعريرة في بدني. وبدأ نسيج صداقة ينمو بيني وبين صاحب الفندق وكذلك مع الحوذي الهرم، والشيخ في القطار، وفي أحاديثهم، يكون الأمل واليأس في حياة أبي ثورة في تلك القوالب الجاهزة التي انتقلت عنه طوال هذه السنوات، حياته ومصيره كانا ينتهيان هنا، وعليَّ أن أغوص في أعماق هذه المدينة وأتهيأ لأستخرج هذه التفاصيل، من جميع الأشخاص الذين حملهم في ذاته كجزء من الكائنات التي تمتزج جذورها دون أن تختلط، وربما تكمن سعادته هنا في أن يعيش وأن يموت، من يدري؟ وتلك النشوة التي يستخلصها من الخمرة في نفسه مذاقاً مختلطاً للحياة والموت، ساعات من الغياب عن الوعي هروباً إلى تخوم اللاوعي، هكذا كان وجه الليل يلتمع في تألق هذه الأفكار.

وبعد هذه الجولة الليلية مع صاحب الفندق، شعرت بالتعب رغم تلهفي لهذه الأحاديث عن أبي، فعدنا إلى

الفندق، ودخلت غرفتي، بعد أن ودّعته، ولكن الليل كان ثقيلا، ولم أتمكن من النوم، ورأيت من النافذة الأضواء المشعّة التي تلتمع من بين أسوار المقبرة، فارتديت ملابسي ثانية حيث لم أجد مكاناً آخر أذهب إليه في قمة هذا الأرق سوى المقبرة، وهناك التقيت برجل نحيل، مغضن الوجه، جاء لاستقبالي وحيداً في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

قال لي بكل ثقة وطمأنينة:

- لا يأتي إلى هذا المكان إلا مهموم.

لم أكن أعرف كيف أجيبه:

- من أنت؟

- إنني حفار قبور.

- جئت أبحث عنك؟

- تبحث عني؟

- أجل، جئت لنقل رفات أبي، أصابني الأرق في الفندق، فجئت قاصداً المقبرة.

- القبور تفرج عن النفوس.

- هل يمكنك القيام بهذه المهمة؟

- هذه وظيفتي، أليس لك أهل أو معارف في هذه المدينة؟

- نعم ولكني أفضل أن أقيم في الفندق.

حفار القبور هو الشخص الرابع الذي أتعرف عليه بعد الشيخ في القطار والحوذي وصاحب الفندق.

بعد صمت قصير قال لي:

ـ وهل تعرف قبر أبيك؟

ـ كلا... لم أكن أتصور بأن المقبرة يمكن أن تتوسع إلى هذه الدرجة، لم أزر المدينة منذ أكثر من عشرين عاماً.

ـ تغيرت الأمور الآن، ياأستاذ، الحرب غيرت كل شيء حيث الشركات هي التي تتعهد بنقل القبور ودفن الموتى، فلم يعد أحد يدفن الموتى مجاناً، والكل مشغول بلقمة العيش، ولا أحد يجد الوقت الكافي للقيام بالدفن، أنظر، الموتى تكاثروا، تصور إنني حفار القبور الوحيد الذي أعمل لوحدي ولحسابي الخاص، يعاونني أحيانا ابني، لذا تحاربني شركات الدفن ومكاتبها المنتشرة في المدينة لأنها لا ترضى أن يعمل حفار القبور لحسابه الخاص.

ـ لماذا؟

ـ أصحاب الشركات أصبحوا من الأغنياء، لا يتحركون إلا في سيارات المرسيدس والتيوتا صالون والشفروليه...

ـ على أية حال، أريدك أن تنقل لي قبر أبي.

ـ ينبغي أن نعثر على القبر أولاً. قل لي من هو والدك؟

ـ جاء أبي مع القطعات العسكرية التي فتحت المدينة، وعمل في الجيش وإدارة المطعم العسكري....

ـ كفى لا تكمل، ابن العجوزة، دفنته بيدي، وأبي دفن العجوزة أمه... إذن توصلنا إلى الحل، لا عليك يا أستاذ،

يبدو أنك متعب وها هو الفجر بدأ بالظهور، اذهب إلى الفندق وخذ قسطاً من الراحة، وسنقوم بنقل رفات أبيك غداً.

ـ ولكن اليوم هو آخر يوم لنقل المقبرة.

ـ هذا كلام البلدية... ربما ستستمر المهلة إلى أسابيع أخرى، ونصف القبور لا زالت هنا.

ودَّعت حفار القبور، وسلكت طريقي نحو الفندق تاركاً خلفي فوهات القبور مفتوحة، مثل حفر عميقة، وأكداس التراب. وامتد أمامي عالم مصنوع من رفات الموتى. كنت كالمهووس الباحث عن ذاته بين القبور، تتراءى لي الشواهد الرخامية والمعدنية، وتدخل في حركة جنون مع رفات الموتى، وحفر القبور، وأسراب النمل البري الهاربة نحو الأسوار، وكأن السماء سقطت بكل ثقلها على هذه الرقعة من الأرض. لم يتجرأ أحد من أهالي المدينة على نبش القبر الكائن في القبة الخضراء التي كان يرقد فيها أحد الأولياء واستخراج رفاته لدفنه في المقبرة الجديدة حتى رجال البلدية أنفسهم لم يتجرأوا على ذلك، هذا ما أخبرني به حفار القبور.

كنت أتمنى أن يجد قبر أبي بأسرع ما يمكن حتى أغادر المدينة. عندما ألقيت بنفسي على السرير، غرقت في أحلامي، وأنا أفتح عيني نصف إغماضة في وجه الفجر، بخيوطه البيضاء الفضية التي مزقت ستائر النافذة لتتسلّل إلى غرفتي. كاد صوت المؤذن، الذي لم أسمعه منذ عشرين عاماً، يشق طبلة أذني، بمكبرات الصوت، ويرمي في قاعي أمواجاً تشكل بركة من

الصراخ. أحسست باللّعاب يجف في حلقي الذي لصق به طعم مرّ للطبق المليء بالبصل والثوم غير المطبوخين. شربت ماء بارداً دون أن يتغير مذاق فمي، أعدت ترتيب شراشف السرير التي بعثرها نومي المضطرب، متأملاً بأن يعيد لي هذا الترتيب الصفاء إلى نومي، ومن النافذة كان المصلون بثيابهم البيض الفضفاضة، يسلكون الطريق الترابية إلى المسجد، ويتمتمون ببعض التراتيل المبهمة، مثيرين موجة من الغبار اللامرئي، ويتقاطعون دون رغبتهم، مع بقايا سكارى خارجين من الحانة لتوهم، ويتحاشون رؤيتهم فيما تختلط خطى أقدامهم بعضها ببعض على الطرق الترابية.

كنت أفكر من نافذتي.

ـ هل يذهب هؤلاء للصلاة على روح أبي؟ هل يتذكرونه؟ أولئك الذين صلّوا على نعشه وأولئك الذين شربوا الخمر معه، وربما سيأتون غداً لنقل رفاته ويؤدون برؤوسهم تحية غامضة كمتحاربين في مملكتين منعزلتين دون أن يعبأ أحد بالآخر.

في تلك اللحظة، تذكرت وجه الخادمة العجوز الذي لاح لي في الحلم يوم ولادتي.. ذلك الوجه المشرق، الخالي من التجاعيد، هذه المرأة العانس التي ظلت عذراء طوال حياتها، لم تعرف الطلق والإنجاب إلّا من خلال النسوة الأخريات، لم يتغير بريق عينيها منذ أخرجتني من رحم أمي إلى أن سقتني كوب الشاي الليلة الماضية، باستطاعتي الآن أن أرى صراخ

آلاف الصغار والأمهات التي اختزنتها في تلك العينين الحزينتين.

هرعت إليها، قبل أن أتناول فطوري الصباحي، لأعرفها بنفسي وأتناول من يدها كوب شاي ساخن وأعتذر لها عن بؤس ذاكرتي الهاربة، لكنني وجدتها، نائمة، مطبقة الجفنين، ممددة على سريرها الذي تحول إلى ما يشبه النعش في هيبته وسكونه.

هرعت إلى صاحب الفندق وسألته عنها، فردّ عليّ بحزن:

ـ إذا كانت نائمة حتى هذه الساعة فهذا يعني أنها ماتت.

ـ ماتت!

ـ أجل. البشر يموتون.

هرعنا إليها فوجدناها ميتة بالفعل، وماتزال أصابع يدها جامدة بعروقها على مقبض إبريق الشاي حيث اصطبغت بالبخار الأحمر القاتم، كأنها تقبض على روح ذلك اليوم البعيد... يوم ولادتي وولادة آلاف الصغار، خيّل إليّ بأنها كانت تستخرج طلاسم حياة أبي من قبره وأسرار حياتي من رحم أمي، موتها شقّ رأسي إلى نصفين: نصف يضيء طفولتي، ونصف يكشف عن قبر أبي.

جلست في غرفتي، أفكر بها، بينما كانت أشعة الشمس تحتشد في الدخول من نافذة الفندق، وتسطع في فناء الغرفة كأنها تحتفل بتدشين فصل الصيف بضوئه الباهر الذي فاض من بين محجري عينيّ وأحالني إلى خدر لذيذ.

ماتت القابلة، قابلتي، والآن لا يوجد أحد غيري يقوم بدفنها لأنها كانت وحيدة، وما زالت روائح القهوة والقطران والشاي تفوح من أثوابها.

6

كنت متعباً، منهك الجسد، لم أستطع أن أنهض مبكراً، وبالأحرى بقيت النهار بأكمله في الفراش مستسلماً لهذا الخدر، لم أكن متحمساً في نقل رفات أبي بعد أن ذكر لي حفار القبور بأن مهلة نقل المقبرة قد تمددها البلدية إلى وقت أطول، فسحبت الغطاء على رأسي، واستغرقت في نوم عميق، ولم أستفق إلا مساء، حين وجدت في صالون استقبال الفندق رسائل عديدة من حفار القبور وكذلك من الحوذي الهرم الذي جاء لزيارتي هذا الصباح.

قال لي صاحب الفندق:

ـ لقد منعت الجميع من إيقاظك لأنني كنت أعرف مدى التعب الذي أصابك، بسهرك في المقبرة إلى الفجر، ومن حسن حظك أن أجهزة الهاتف معطلة في الغرف.

ومن ثم أطرق مفكراً وقال:

ـ فقد ذهبنا لدفن العجوز القابلة هذا الصباح في المقبرة الجديدة التي سينقل إليها قبر والدك، بمباركتك وبخيرك.

وعاد تفكيري إلى نظرات القابلة التي ما زالت تلاحقني.

لم تكن لدي رغبة في الذهاب إلى المقبرة والتفكير في نقل رفات أبي ما دام حفار القبور والحوذي وصاحب الفندق تعهدوا لي بالقيام بهذه المهمة، وقررت التجول في شوارع المدينة وطرقاتها وأزقتها، التي نهشت الأقدام البشرية وجلود الحيوانات وهي تحثني على التجول، كاشفة عن آثار خطى طفولتي ومراهقتي ورجولتي، وفاتحة بواباتها لكهولتي بين صوت أمي المرتجف والمحذر لطفل يكاد يغرق في بحر مضطرب:

ـ إياك أن تلتقي بهما.. زليخة مجنونة ومعتوهة وبلهاء.. وسلطانة فاجرة وعاهرة وخائنة!

وكبرت صدى تلك الكلمات في أعماقي، ونفذت التحذيرات إلى أحشائي رغم أنها خرجت من فم أمي التي خجلت منها.. أعز مخلوق عندي وآخر ما أحتفظ به في حياتي.

إلا أن الغيرة الأنثوية عبقت برائحتها القوية وملأت المكان بلون أصفر.

ـ أليس من الحماقة أن أصغي لرأي امرأة بامرأة أخرى حتى لو كانت أمي؟

كنت أعرف بأن زليخة وسلطانة امتصتا رحيق أبي،

كفراشتين نزقتين، ولم تتركا لأمي سوى شيخ، متعب القلب، منخور الكبد.

بعد وفاة أبي، قالت لها إحدى العرافات الجوّالات اللاتي يشحذن الخبز لقاء مشورة:

ـ تزوجي ما دام الطمث يعاودك في ريعان الصبا.

لكن أمي أوصدت بابها بوجه تلك المشورة التي نزلت عليها من السماء، وظلت امرأة وحيدة ترقب سنوات صباها تمر كبريق عابر أمام عينيها.

قلت لها وكأنها كانت تقف أمامي:

ـ اتركي مهاوس زليخة وسلطانة..

لم أكن أعرف من أين تصدر هذه المهاوس من الغيرة الأنثوية أم من زهو الرجولة؟

على أية حال، ثمة رغبة قاهرة تدفعني للالتقاء بهما، الغموض الذي يكتنفهما يأتي من امتلاكهما أسرار أبي، وربما كانت أمي تسعى للانفراد به مثل كنز يعود لها وحدها، وكلما كنت أصغي لتحذيراتها، تتولد في نفسي جذوة تمرّد، وفي عنادي هذا، كنت أرى أمي تغضب، وتزيح وشاحها الأبيض عن رأسها وتصب عليّ لعناتها إلى يوم القيامة:

ـ لست ابني أيها الخائن.

أراني أصرخ بوجهها لأول مرة:

ـ لا.. لست خائناً.

استيقظت من نومي مذعوراً من هذا الاتهام.

ـ أجل. خنت وصية أبيك.

سكتت قليلاً ثم أضافت:

ـ وأنت تعرف ماذا سيحل بك إذا تنكرت لوصية أبيك.

وعند خروجي من الفندق، تخيلت أن المارّة ينظرون إليّ كمجنون أحمق يتكلم مع نفسه.

حاولت أن أخفف من غلياني اللامجدي، تحلق حولي صبية الحيّ عندما انتبهوا إلى ضياعي في متاهة الأزقة المظلمة إلا من بعض المصابيح الضعيفة المنتشرة هنا وهناك والتي تركتها البلدية مضيئة في النهار خطأ. سألت أحدهم عن منزل سلطانه فأمسك بيدي وقادني إلى منزل كبير، مشيّد من الطابوق الأصفر يظهر مثل قصر بين البيوت الطينية. وقفت أمام البوابة الخشبية المرصعة، بهلع ورهبة، كأنني أقف أمام مزار، ورحت أنصت إلى صدى طرقي على البوابة التي انفتحت بهدوء وكشفت عن ممرات طويلة، بظلالها المعتمة المنخورة بأشعة آتية من ثقوب كائنة في الجدران أو السقف. ظهرت سلطانة من طرف البوابة ترتدي ثوباً أزرق، ينسدل شعرها الطويل المنسرح على كتفيها العامرين، تلتمع في عينيها شرارات الكحل التي تخترق صفحة الوجه، وتحدد حاجبيها مثل خيط رفيع يلتف حول عينيها الواسعتين، وشفتاها جوزيتا اللون، إثر ترويضهما بالديرم، وحلمتا ثدييها ناتئتان من الثوب الأزرق الشفاف كأنهما تأهبتا حين شمتا رائحة رجولية. أو هكذا خيّل إليّ، تصفح الزمن سنواته العجاف بعيداً عن وجهها فبدا كدفتر

أبيض ناصع لم يلمسه قلم، وصحن المنزل يطل على السماء؛ يغمره فيض النهار الأزرق، ويتسلل وسط الجدران الصقيلة، ويقتحم تلك الغرف المهجورة المتداخلة، زواياه المختبئة وراء الزمن، رغبة قديمة محمومة تتحدث عن اقتراف الخطيئة في أوقات الظهيرة الساخنة المهجورة في مدينتي، اللعنة على الرغبة المحمومة التي تطهر من الخوف والتردد، فإذا لم أكن سيد نفسي في هذه اللحظة فمتى سأكونها؟

وقلت في نفسي:

ـ لماذا كل هذا الإجهاد إنها ليست سوى فكرة لا أكثر ولا أقلّ.

صعدنا درجات سلم خشبي أبيض إلى الطابق الأول، اقتربنا قليلاً من الشمس النازلة في الصحن؛ دون أن نتفوه بكلمة، لكننا على ما أعتقد، قلنا الشيء الكثير عبر الإشارات الغامضة المحيّرة التي كثيراً ما توقعنا في سوء الفهم، ثم جلسنا على دكة حجرية مدوّرة، أرائك نصف دائرية، تكسوها أفرشة محشوة بالريش البري الثمين.

في هذه اللحظة، شعرت بأني أقدم على خرق اتفاق مع أمي لأنني وعدتها بألا ألتقي بسلطانه وها أنذا أزورها في منزلها، وفي لحظة، أدركت بأن المرأة مخلوق غامض ولغز عصي على الفهم.

هل يمكن أن تكون سلطانه إلهة للدمار في حياتي وحياة أمي؟

ثمة تكتم أنثوي في كلماتها التي لم تتفوه بها بعد.

ـ هل أجد إجابة على سؤالي عند سلطانه؟

قالت لي وهي تنظر إلى السماء:

ـ لا تدري كم فرحت لمجيئك إلى بيت أبيك، لكني حزينة لما وقع بيني وبين أمك من شجار وسوء فهم حول ملكية هذا المنزل، أمك لا تتصور بأن والدك ترك لي ورث هذا المنزل في وصيته، بل هي لا تتقبل حتى فكرة أن أرث شيئاً منه، وتتوهم، على الدوام، بأني زيفت وصيته، ولحسن الحظ كان قد أودع تلك الورقة عند صديقه أمين المكتبة في القلعة بتوقيعه وختم البلدية.

قلت لها مستفسراً:

ـ ومن هو أمين المكتبة هذا؟

ـ أمك تعرفه جيداً.

ـ اسمعي يا سلطانة.. أنت تعرفين بأني لم آت إلى هنا من أجل الحديث عن الإرث.

هزت رأسها ولكنها واصلت:

ـ اقترحت على أمك أن تقاسمني العيش في هذا المنزل لكنها رفضت، ماذا أفعل لها أكثر من ذلك؟

ـ لست هنا لأبحث هذه المشاكل.

ـ كان أبوك رجلاً كريماً يمنح كل ما يملك لا للأقرباء فقط بل حتى للغرباء.. ونحن نساؤه الثلاث، لم نكن نشكو من حرمان أو ضائقة. ولا أخفيك بأني لم أسكن في هذا

المنزل إلّا لأكون بجواره.. حتى زليخة التي يقال إنها مجنونة فقد جاءت لتعيش بجواره وتنزل من قلعتها كل يوم لتزور قبره لكن أمك، قاسية القلب، ذهبت لتعيش بعيداً عنه.

ـ أنا الذي نصحتها بالإقامة في بغداد.

أطرقت للحظات ثم أضافت:

ـ أبوك رجل متسامح ولو كان رجلاً آخر لما كانت زليخة على قيد الحياة الآن، لأنه لم يفضحها عندما اكتشف عدم عذريتها في ليلة العرس، ولو فعل ذلك لقتلها أخوتها في الحال.. أقسم لك، كانوا يمزقونها إرباً لكن والدك طلقها بعد مرور شهر واحد حسب القوانين لتنجو بنفسها...

تنهدت قليلا وقالت:

ـ ولم تتمكن من العيش مع رجل آخر منذ ذلك اليوم.

قلت:

لقد سمعت هذه الاسطوانة عشرات المرات.

وقبل أن أتفوه لتغيير مجرى الحديث، قالت:

ـ تريد الحقيقة؟

ـ أجل.

ـ نحن الثلاث، زليخة وأمك وأنا، لم نعد نتمكن من العيش مع رجل آخر.

ثم ألحقت ذلك بسؤال عاجل:

ـ وهل تعلم لماذا لم يترك والدك إرثاً لأمك؟

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان يعتقد بأنها ستتزوج من رجل آخر بعد موته، لكن أمك ظلّت وفيّة له.

وما إن أصابني بعض الشرود حتى انطلقت:

ـ لم أكن أصدق زليخة حين أخبرتني بأنها لا ترتضي العيش مع رجل آخر حتى جرّبت ذلك بنفسي.

ـ ألم يكن ممكناً أن تتفاهمن بعد سفري؟

ـ اقترحت على والدتك أن تسكن معي في هذا المنزل، لكنها رفضت وأعرف بأنك تبعث إليها الأموال بين الحين والآخر...

ـ أنت تعرفين بأن هذا أمر مستحيل، وهي تفضل أن تعيش لوحدها بعيداً عن المشاكل.

ـ وأنها لا تأتي إلى هذه المدينة إلا لزيارة قبر أبيك.

ـ كل شيء يتم بالتفاهم.

ـ بالتأكيد وهذا ما أرجوه منكن، بينك وبين أمي وبين زليخة وأمي أيضاً، لا أدري لماذا تغاران من امرأة عجوز مثل زليخة، فهي لم تكن زوجة أبي إلا لشهر واحد كما قلت قبل قليل.

ـ ونحن نحاول إرضاءها بشتى الوسائل.

ـ وماذا تفعل زليخة الآن؟

ـ تخشى أن تموت قبيحة لأنها لا تريد لقاءه هكذا... لذا تضع أحمر الشفاه والأصباغ على وجهها قبل أن

تنام.. المسكينة، كما تلصق صورتها في ريعان الصبا على صدرها المترهل.

ثم أضافت:

ـ لكنها ليست مجنونة لهذا الحد فهي لاتزال تنبش الماضي وتتآمر ضدي وضد أمك.

ـ يا سلطانة.. أنت تعرفين بأنني كنت أتجنب التدخل في هذه الشؤون عندما كنت هنا..

عندما لاحظت انفعالي، حاولت تغيير مجرى الموضوع وبادرتني بالقول:

ـ لماذا لا تنام هنا؟

ـ إني أسكن في الفندق!

ـ يمكنني أن أجلب لك سريراً إن شئت. فالغرف كثيرة.

ـ لا أعتقد. سأبقى هناك يوماً أو يومين.. ثم سأسافر حالما أنقل قبر أبي.

ـ قل لي لماذا ترفض أمك أن نساهم جميعاً في نقل قبره؟

ـ لا أدري!

ـ ولماذا طلبت منك المجيء من مكان بعيد وهي تعرف ما ينتظرك من مخاطر هنا.

ـ أية مخاطر يا سلطانة؟

ـ الفندق معرّض للتفتيش اليومي على الدوام.. وأنت تعرف لماذا هجرت المدينة؟

ثم انفعلت قائلة:

ـ أقسم لك لو بقيت هنا، لقتلوك.

ـ الزمن تغير يا سلطانة.

ـ لم يتغير شيء، الذين اعتقلوك مرتين ما زالوا هنا.

ـ لكنهم يعرفون سبب مجيئي الآن.

ـ أنت تجهل ما حدث بعد رحيلك.

ثم نهضت فجأة، وابتهلت إلى السماء، وأتت بإبريق شاي ساخن.

سألتها:

ـ هل سمعت بموت القابلة؟

ـ مسكينة.. لحسن الحظّ هيأت قبرها وكفنها وحتى الصابون الذي يغسلون به جثتها.

ـ ولماذا كانت تعمل خادمة في الفندق؟

ـ لم تعد مهنة القابلة صالحة منذ اندلاع الحرب لأن بطون النساء جفت.

بعد ذلك تنهدت بحزن:

ـ الغيرة فرّقت بيني وبين أمك لأنها لم تكن تتحمل أن يتقاسم لياليها معي.

ـ لماذا تغار وأنت مطلقة؟

ـ إننا لم نكن مطلقين إلّا على الورق وأمك تعرف ذلك ولهذا تغار.

الدموع تلتمع في محجري عينيها:

ـ اعذرني لأنني أتحدث عن علاقتنا الحميمة.

وحين مددت يدي لأمسح دموعها، قبلت يدي بلسانها، فكان علي أن أغادرها:

ثم قالت لي:

ـ لابد أن تزورني قبل أن ترحل.. إنني بحاجة إليك.

غادرت سلطانة بعد أن ودعتني بقبلة على فمي مما خلط في رأسي الأمور كلها، وشعرت بأنني أقف على حدود الخطيئة مفجرة في أعماقي ينبوع الرغبات المحرّمة التي طوتها مدينتي!

حاولت السيطرة على مشاعري المرتبكة، فسألتها:

ـ وأين تسكن زليخة؟

ـ في القلعة.

ـ في القلعة..

ـ أجل في الحمام المهجور.

ـ أي حمام؟

ـ حمام البلدية الأثري.

ـ ولماذا هجر؟

ـ لأن الماء لم يعد يصعد إلى القلعة.

عدت فجراً إلى الفندق مفكراً بسلطانه.

حفار القبور وابنه ينتظراني في الصالة وهو يتحدث مع صاحب الفندق، فنهضا من مقعديهما ورحبا بي، وبادرني حفار القبور على الفور:

ـ عثرنا على قبر والدك يا أستاذ.

واستولت علينا حالة صمت، ثم أضاف حفار القبور:

ـ يمكنك الاستراحة اليوم وسنقوم بنقل رفاته في الغد.

ـ موعدنا في الغد إذن.

ثم خاطبني صاحب الفندق:

ـ يفضل أن تدفنوا رفات والدك في الصباح.

هز حفار القبور رأسه موافقاً.

لم أكن أفهم لماذا ندفن الرفات في الصباح لكني وافقت ولا عمل لي في هذه المدينة سوى ذلك. كان الوقت مبكراً للنوم، فصعدت إلى غرفتي، ولم أستطع أن أبعد صورة سلطانه عن ذهني، علي أن أنام جيداً الآن من أجل تلبية دعوتها لي على العشاء في منزلها، لكني لم أفهم مغزى كلامها وهي تقول لي: إنني بحاجة إليك. لم أكن أقوى على الاختيار في تلك الليلة.

وتوالت الأسئلة في رأسي:

ـ لماذا كل هذا الانجذاب نحو سلطانه؟

ـ هل لأنني تعلقت بها في صباي؟

ـ وهل يقدَّر لي أن أدخل الحب من دائرة كل ما هو محرم على الدوام؟

ـ وهل أصبح منع أمي من رؤيتها حافزاً على هذه الرغبة اللعينة؟

نظرت إلى وجهي في المرآة، لاحظت أنه يحمر خجلاً.

وقلت في نفسي:

كانت أمي ترسلني مع أبي عندما يزور بغداد خشية أن يرى مطلقته سلطانة التي كانت تعيش في بغداد آنذاك قبل أن تستقر في مدينتنا لكي تكون قريبة منه ولكنه لم يكن يستطع أن يرى مدينته دون أن يزور مطلقته، وكنا نذهب معاً، وكان يشتري لي الهدايا ويحثني على عدم البوح بذلك حتى صار سراً من أسرار مراهقتي. كانت سلطانة مدهشة، رائعة الجمال، بيضاء البشرة، بدينة قليلا ما، لا يمكن مقارنتها بأمي التي تبدو بجوارها بدوية وريفية وشعبية.

ولم تتوقف الأسئلة:

ـ هل يمكن لرجل مثلي رأى نساء العالم أن يقدم على هذا التفكير؟

كانت هذه المبارزة المجنونة مع الذات في حالتي اليائسة نوعاً من الخلاص من عجزي في تبرير تلهفي على الجنس في هذه الليلة التي بدت فيها سلطانة صورة لقوة مدمرة، قد تودي بي إلى السجن والجلد بالسياط، خطيئة لا يمكن أن تغتفر. وانتابتني رعشة في الغرفة الباردة الضيقة، تحت الضوء الكهربائي البارد والمبهر للعين، وبدت لي الأشياء المألوفة غريبة ومخيفة، وأصبحت هذه اللحظة أكثر كآبة من نقل رفات أبي إلى المقبرة الجديدة لكن قوة خفية دفعتني إلى الخروج في ساعة متأخرة والتوجه إلى منزل سلطانة.

وتساءلت في نفسي:

ـ هل لي أن أسير ضد الأعراف كلها وأضربها عرض الحائط؟

كنت أعرف أن أمري لن ينكشف، والكل يعرف أن سلطانة، هي زوجة أبي المطلقة، ومن الطبيعي أن أزورها ولكن ليس بعد منتصف الليل. وماذا لو قابلني حراس الليل، هل بإمكانني أن أرشوهم أو أن أفسر لهم زيارتي الليلية المشكوك بأمرها.

أليس هذا كله أمراً سخيفاً؟

وبانتشار السكون والصمت كانت رغبتي بلقاء سلطانه تتجدد، وتزداد، وتكاد تخنقني إذا لم ألب نداءها، همسها الآتي مع الرياح يخترق جدران الفندق.

ساد صمت ثقيل وانقطعت الأصوات كأنما استولت عليه روح شريرة، أية فكرة كابوسية تنتابني يا إلهي؟

7

القلعة، بمكانها المرتفع وبأضوائها المتألقة في فناء مظلم حزين ومهجور، تسحر الساكنين في أسفلها بالتسلق عبر ممرات حجرية تعبق بغبار التاريخ الذي يشبه صومعة من عالم التنبؤ والفأل والتأمل.. ها هي القلعة، تحيلني إلى الصمت على الدوام، حين أكون في داخلها، أشعر ببقع الظلام تنتشر في مدخل هذا الزقاق أو عند مداخل البيوت على الرغم من المصابيح الكهربائية التي صممت على شكل قناديل، تتألق تارة وتنطفىء تارة أخرى. ولعل ما يزيد من وحشة هذا المكان ليس الجدران المتهدمة بل الوجوه المتآكلة، كما لو أن حشرات قارضة عصفت بوجوه الأهالي، وشعور رؤوسهم تبدو وكأنها جُزت أو ابتلعت أجزاء منها حيوانات مفترسة؛ قضمت حتى جزءاً من فروة رؤوسهم. أزقتها خاوية إلا من بعض حراس الليل الكسالى الذين تحولوا إلى جزء من تماثيل القلعة

القديمة، فهم غارقون في دخان لفافات سجائرهم المتصاعدة مثل بالونات وهمية إلى أعالي القلعة.

بعد أن مللت الفندق خرجت إلى الأزقة، أبحث عن الحمام المهجور الذي تسكن فيه زليخة.

وما إن سمعت طرقاتي، حتى همست من خلف البوابة الخشبية نصف المفتوحة:

ـ أدخل.. أنت في بيتك.

أحنيت قامتي محاولاً الدخول عبر بوابة واطئة.

وبصوت مرتجف قالت:

ـ أعرف أن سلطانه أعطتك العنوان.

ثم هرعت نحوي وقبلتني من رأسي. ثم قادتني إلى حجرة دائرية، هي بالفعل إحدى غرف الحمامات المصممة على الطراز التركي، فرشت أرضها بالسجادات الرثة، وشعرها مغطى بطبقة حمراء من الحناء.. لم تكن الأصباغ الفاقعة تخفي تجاعيد وجهها. وما إن جلست على الأرض حتى بادرتني بالقول:

ـ أمك وسلطانة تآمرتا عليّ ورفعتا ضدي دعاوى إلى المحاكم بحجة أني لم أكن زوجة أبيك الشرعية.

بعد لحظات صمت، صرخت باكية:

ـ هل تقبل أن يصبح القانون ضد الحب؟

امتلأت عيناها بالدموع.

قلت لها محاولاً إبعادها عن البكاء:

ـ ماذا ينفع البكاء.. انتهى كل شيء الآن.
قفزت من مكانها وصرخت:
ـ لا. الآن بدأ كل شيء!
ثم مسحت دموعها:
ـ فرحت لمجيئك، ربما هذه آخر فرصة ترى فيها والدك.
ـ أرى والدي!
ـ أجل.
ـ لكني جئت من أجل نقل رفاته.
ـ نقل رفاته؟!
ـ نعم.
ـ لكن والدك لايزال حياً يسكن في القلعة.
ـ في القلعة!
ـ أجل هنا في هذه الأرض التي أنت فيها الآن. يعيش على كرسي هزاز تحركه الرياح ولا يفعل شيئا سوى النظر إلى المدينة من الأعالي الشاهقة.. هذه متعته الوحيدة، النظر إلى المكان الذي أمضى فيه كل حياته.
ـ ماذا تقولين يا زليخة؟ هل أنت مجنونة؟!
ـ هكذا أصبحت تتكلم كالآخرين.
ـ لكني جئت لنقل رفاته إلى المقبرة الجديدة.
ـ هل تريد أن تدفنه قبل أن يموت؟!
ـ لكنه ميت منذ زمن طويل.

ـ لقد زرته ليلة البارحة، وحملت له العشاء بيدي.. ربما كان عشاءه الأخير.

بعد لحظات تأمل أدركت أن زليخة كانت تعاني من اضطرابات عقلية على الدوام، لكني نسيت وأمضيت في مجادلتها بكل هذه القوة، ثم حاولت إقناعها قائلاً لها:

ـ أبي مات منذ أربعين عاماً يا زليخة.

صمتت قليلاً وقالت:

ـ الذي مات لم يكن أباك.

ثم بدأت تبكي وتردد:

ـ اتفقنا أن نموت معاً.

وأخذت تمسح دموعها بوشاحها الأسود الممزق ثم أعطيتها بعض المال ووعدتها بزيارة قادمة قبل سفري، وبقيت عبارتها ترّن في أذني:

ـ أبوك يعيش على كرسي هزاز تحركه الرياح في القلعة. والذي مات لم يكن أباك. وهنا زرعت في رأسي الشك من جديد...

وتساءلت:

ـ هل ماتقوله صحيح ياترى؟

رحت أبحث عن أمين المكتبة الذي أخبرني صاحب الفندق بأنه يعرف الكثير عن والدي.

ـ هل أطرح عليه شكوكي التي تولدت قبل قليل من كلام زليخة؟

ـ هل أسأله فيما لو كان الراحل أبي؟

ربما كذبت عليَّ أمي... وسلطانه، كل شيء ممكن.

ربما يكون أبي لايزال على قيد الحياة؟

من يدري؟

الأم وحدها هي التي تعرف من الذي زرعني في أحشائها.

ثمة أعمدة منتصبة على سطوح البيوت لاستقبال البث التلفزيوني الممنوع.. فالأهالي يفتحون عيونهم ويغلقونها على أجهزة راديو صغيرة بحثاً عن أخبار العالم، وشاعت أخبار عن ترحيل أهالي القلعة إلى قاع المدينة.

فاجأني صوت كأنه انبعث من وراء أحد الأبواب المغلقة، تعلوها لوحة نحاسية كبيرة كُتب عليها أسم المكتبة:

آنذاك رن في رأسي ما قاله صاحب الفندق أثناء جولتنا في شوارع المدينة بالأمس.

إذا أردت أن تتعرف على أبيك فاذهب إلى أمين المكتبة.

ـ أي مكتبة؟

ـ مكتبة القلعة.

ـ لكنها مغلقة في الليل.

ـ أمين المكتبة يسهر حتى الفجر.

هنا يسهر وراء هذه البوابة الضخمة بين أكداس الكتب، صوته يشبه التراتيل الحزينة يمرّ إلى أذني كالرنين المتقطع كأنه

ينطلق من بئر رطبة، يتضاعف إثر ارتطامه بجدران المكتبة الموحشة. كما لو كان ينطلق من مكبرات صوت ضخمة.

ثمة بوابة خشبية زرقاء، نصف مفتوحة، كانت تدعوني للدخول ما إن دفعتها بيدي دفعة خفيفة حتى انفتحت باتساع، كاشفة عن دهليز طويل يشبه المغارة، يجلس في آخره رجل هرم يبدو كأحد حكماء القرون الوسطى لولا نظارته العصرية المقعرة التي التهمت وجهه. يبدو من تلمس أصابعه للكتب المكدسة على مكتبه بأنه نصف أعمى وربما أعمى تماماً، تململ في جلسته متحسساً وجودي، أثارتني في هذه المكتبة الأثرية، تلك الشموع التي وضعها في الزوايا المظلمة كما لو كان يقيم قداساً أو صلاة تراويح أو حفلاً تأبينياً للكتب الميتة، خطر يتهددني لو سقطت إحدى الشموع وأشعلت لهيب النار في الكتب والأعمدة الخشبية والأوراق المهملة المرمية على الأرض. كادت قدماي تصطدمان بالكتب الساقطة من الرفوف على الأرض من دون معرفته أنها تسبَّبت في تصاعد الغبار واشتباكه بخيوط ضوء القمر المتسلل من النوافذ والكوات العليا.

وقبل أن أصل إلى مكتبه وأؤدي له التحية، رفع رأسه من بين أكوام الكتب قائلاً:

ـ لو كنت تبحث عن الكتب لما جئت في هذه الساعة.

ثم نهض من مكتبه، واستقبلني بابتسامة حزينة:

ـ اعذرنا من فوضى الكتب.

بعد توقف قصير أضاف:

ـ هذه الكتب، كما تراها، أرسلها لنا المؤلفون.. وغالباً ما يرسلون مخطوطات كتبهم.

بعد ذلك أمسكني من يدي كطفل وقادني إلى دهليز مظلم، مبيراً الطريق بشمعة قطفها من إحدى الزوايا، وقال لي:

ـ أنظر إلى هذه الصناديق المليئة بالمخطوطات التي تنتظر النشر، يظنون أنها في مكان أمين.

وبدأ يقهقه كما لو أنه يجيب نفسه:

ـ لم يغد أي مكان آمناً هنا رغم القوانين التي تمنع رجال البلدية من دخول المكتبة لأغراض التفتيش.. ولكن.

ثم صمت قليلاً وأشعل غليونه:

ـ حتى بيوت الكتّاب لم تعد آمنة، قد تسخر مني إذ قلت لك إن كاتباً دفن مخطوطة إحدى رواياته في قبر والده، معتقداً بأنه المكان الوحيد الآمن.. اسأل حفار القبور وسيخبرك بنفسه، وها أنت كما ترى، أنهم الآن ينبشون المقبرة ويريدون نقلها إلى مكان آخر.

قلت له:

ـ غداً هو آخر موعد لنقل المقبرة؟

ـ أعتقد.

ـ جئت لنقل قبر أبي.. أقصد رفاته.

هزّ رأسه، وهو ينفث دخان غليونه في الفضاء، ضارباً يد بيد:

ـ هكذا تركنا ورحل.

وقبل أن أسأله عن أبي، قاطعني قائلاً:

ـ كل شيء ينبش هنا حتى الأعراق والأنساب والأصول، هذا من العرق الفلاني.. وذلك من النسب الفلاني.. هذا دمه صافٍ وذاك دمه خليط. تخيل يا أستاذ.. لا يكفي أن تحرقنا الشمس أكثر من خمسين درجة ولا يكفي أن نولد هنا ونتنفس الغبار، في هذه البيوت الطينية، لا يكفي أن يهطل المطر على رؤوسنا في الشتاء، ولا يكفي أن يكون أبوك أو جدك ولدا هنا ودفنا بين ألواح الطين، ولا يكفي أن يأكل النمل عيون آبائنا وأجدادنا.. حتى نصبح مواطنين. هل عندكم هذا في الخارج؟

أصابني الذعر فقلت له:

ـ وكيف تعرف أنني أعيش في الخارج؟

ـ كيف لا أعرف، أنتم على عدد الأصابع هجرتم المدينة، ونحن هنا نتنفس معكم ذلك الأمل، ذلك الوهم الجميل الذي هيمن علينا وعليكم، البعض منكم كان يائساً حتى من تغيير نفسه، وبعض منكم أنكر المدينة تماماً والبعض الآخر فضل الانزواء والاختفاء بعيداً عن أنظار المدينة.

ـ يعني أنك تعرفني حتى تتحدث معي هكذا.

ـ إنني أنصحك بالرحيل من هنا، لا أعتقد أن رجلاً جرب حياة أخرى قادر على التكيف مع حياة الأشباح، أنظر حتى جدران البيوت والمخازن والدوائر أخذت تتآكل ولا أحد

يرغب في صيانتها أو ترميمها. هذه القلعة التاريخية التي كان من الممكن أن تجني منها الدولة آلاف الدولارات، تركتها تتآكل، تتهدم، تصبح مأوى للمتسكعين والمدمنين والشواذ. أليست هذه لعنة نزلت علينا مع نزول الحروب الجاحدة، أنصحك بأن تتركنا وحالنا، فنحن بشر لم يبق منا سوى الغرائز التي أصبحت لا تثور حتى على نفسها، من الذي أقنعك بالمجيء والمجازفة بحياتك من أجل حفنة تراب تسمّيه أنت رفات أبيك، وماذا تعتقد، هل أن الأقوام التي تحرق جثث موتاها وتذر رمادها في الوديان والبحار هي أقوام لا تعرف العاطفة والمشاعر، هل تعتقد بأننا البشر الوحيدون الذين نمتلك هذه العاطفة وهذه المشاعر، لا أريد أن أثبط من عزائمك، إياك وأن تعترض على نقل المقبرة لأنك ستدخل في دائرة صراع تكون نتائجه وخيمة.

كان الإنهاك بادياً على تجاعيد وجهه، تتقطع أنفاسه كأنه مصاب بالربو، وقبل أن أقوده إلى مكتبه ليستريح، قلت له بلهفة:

ـ وهل عرفت أبي؟

ابتسم ونظر إلى أرجاء المكتبة، ثم نهض من مكتبه ثانية وقادني إلى دهليز آخر مليء بالأدراج، وأشار بإصبعه المرتجف:

ـ أنظر إلى هذه الأدراج، أبوك قرأ جميع هذه الكتب وما تزال آثار بصماته مختلطة بالغبار.. والحبر.

لا شك أن السهر جعله يهذي بحمى شديدة.

قلت له:

ـ يبدو أنك تخلط بين أبي وبين شخص آخر، لم يكن أبي يعرف القراءة ولا الكتابة.. ولم يقرأ سطراً في حياته.

قهقه أمين المكتبة وكادت نظارته تسقط عن أرنبة أنفه، ثم أضاف:

ـ يا ابني، إني أعرف والدك كما أعرف نفسي، كان يزورني إلى المكتبة كل ليلة، وهو لايقرأ إلّا في هندام أنيق، بدلة إنكليزية، وربطة عنق من الحرير لكنه في النهار يرتدي ثيابه الشعبية ويصبح إنساناً آخر ويضيع بين الناس.

أطبق عليّ الصمت بينما استمر هو:

ـ أبوك سافر إلى بلدان أجنبية بعيدة، عاش، وتعرف على كبار القوم فيها.

وحين ضحكت، ساخراً من أقواله، قاطعني بعصبية:

ـ إذا لم تصدقني لديّ كتب تتحدث عنه بالانكليزية والفرنسية والألمانية و...

كنت أظن بأنه هذيان محموم انتقل إلى رأسه من الكتب القديمة أو الروايات التي كان يطالعها أو يحلم بمطالعتها.

ثم قال بلهجة صارمة:

ـ وقد تزوج أبوك من نساء أجنبيات وأنجب منهن.

ألم تخبرك والدتك بذلك؟

لم أعد أتحمل هذا الهذيان الجنوني حول أبي.

غادرته وأنا أشعر بخطواته تلاحقني، محاولاً أن يعطيني الكتب التي يدّعي بأنها تتحدث عن أبي، هبت ريح قوية في دهاليز المكتبة وأطبقت البوابة وراء فصل من الهذيان المحموم، مثله مثل زليخة.

كانت سطوح البيوت تبدو من فناء القلعة، واطئة وخائفة كأنها أجنحة الحباري المرتجفة تحت مخالب صقر متأهب للانقضاض عليها، استنشقت الهواء الطلق بعد أن حاولت طرد غبار الكتب من رئتي اللتين تقلصتا إلى حد الالتصاق، متقيئاً غبار المكتبة من صدري المجهد. ثم أرسلت نظري من العلو الشاهق إلى المدينة التي بدت كهاوية من الظلام الذي كان كثيفا لدرجة أن بقع الضوء ظهرت مثل أجنحة فراشات تتألق وتنطفئ بلمحة البصر، ومن بين تداخل الظلام وبقع الضوء التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لاح لي كرسي نحيف كأنه مصنوع من سعف النخيل المصقول، يتحرك مستنداً إلى عجلات وهمية، ومن خلف الأغصان المتشابكة لظهر الكرسي، بدا شبح رجل، مقوس الظهر، يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق، منكب على قراءة كتاب قديم مهلهل الصفحات تورقها الريح وتلقيها في قاع المدينة ورقة إثر ورقة. فصرخت بأعلى صوتي:

- أبي.. أبي!

وهرعت إلى الكرسي المرتجف، فوجدته خالياً، ركلته بقدمي المخدرة، فتدحرج إلى أسفل القلعة كأنه يهوي في بئر

عميقة محدثاً ارتطامه بالقاع صدى ينظم في أذني تراتيل زليخة وأمين المكتبة مثل جوقة ترددد:

ـ أبوك يعيش في كرسي هزاز تحركه الرياح في القلعة.

ـ أبوك يقرأ الكتب في بدلة إنكليزية أنيقة.

انطلقت قهقهاتهما في دروب القلعة، على ظهر ريح خفيفة تنفذ إلى أذني رويداً رويداً.

من بعيد، ظهر لي شبح ملثم بوشاح أسود، مرتدياً جلباباً أسود من قمة الرأس إلى أسفل القدم كأنه يتوالد في الريح، اكتظ الفضاء بالقهقهات العابثة الساخرة التي تتحداني بصلف امرأة لامبالية. هرعت إليها، هذه المرأة الخبيثة، الشبح الماكر، الخارج من أحجار القلعة وتاريخها المندثر، وصفعتها على وجهها بكفي التي قلعت القناع وأزاحته عن الوجه الذي يختفي وراءه، فذهلت صارخاً؛ ويا هولي من هذا المنظر!

ـ زليخة.. أنت زليخة!

ـ ومن ستكون غير زليخة؟

لم تتوقف قهقهاتها المتتالية، العابثة بمصيري، ممزقة جو الرهبة الذي استولى على القلعة وهي تردد بلا توقف!

ـ ألا تخاف من البحث عن أبيك والاستفسار عن أصوله؟

وقلت في نفسي: ولم الخوف من البحث عن أبي والاستفسار عن أصوله؟

لكني لم أعرف أبي بل عرفت آباءً آخرين كانوا يفرضون وصاياهم علي، ألم أهرب من هنا، من سلطة أولئك الآباء؟

من تلك العيون التي كانت تستفزني بنظراتها؟ جبابرة مدينتي الذين هربت من سطوتهم؟

وانطلق من أعماقي السؤال الذي كان يؤرقني قبل مغادرتي المدينة.

ـ هل كنا بحاجة إلى كل هؤلاء القديسين والأئمة، شفعاء هذا الشعب المسكين، حيث تجد في كل زاوية قديساً أو قبره، وما زالت سطوته قائمة، حتى بعد مماته، أليست مصادفة أن يكون جميع الآلهة من الذكور الأقوياء الجبابرة؟

قلت في نفسي:

أهذه هي نهاية رجل يبحث عن أبيه تسخر من قلقه زوجة أبيه المطلقة، المجنونة وأمين مكتبة عجوز ومعتوه؟

كانت زليخة، هذه العجوز المهووسة، المسكينة والمجهولة المصير مثلي، تظهر وتختفي، في فناء القلعة، ككائن وهمي؛ وراحت تقفز بين الدكات الحجرية المنتشرة كطفلة تقفز فوق حبال غير مرئية، وكلما تبعت خطواتها اختفت في الفناء، هذه اللعينة التي حولت مأساتي إلى نوع من لعبة.

وقلت في نفسي ثانية:

ـ ولماذا يتوجب علي أن أخشى من سطوة أبي الذي لم أعرفه أبدا؟

أعرف أنني سليل حضارة تؤمن بالإله ـ الأب، هذا الذي ضمن لي ديمومة النسب، وهو الواحد الذي ولد منه كل

شيء، وفيه يصب كل شيء، غير أنه أيضاً الغول والطاغية، وإله الغضب، لماذا كل هذه الحيرة معه؟

إنني لم أسمع في حياتي أحداً يقول لي: أنا أبوك، هذه الجملة التي تحمل بين طياتها التفوق والإذلال، والإرادة الجامحة والتعسف.

ليس غريباً أن يكون هذا الأب ـ الذكر الذي يدل على الموت، هو أبي.

حاولت أن أتخلص من هذا الكابوس، متلمساً طريقي في أزقة القلعة المهجورة إلّا من بعض النساء المختفيات خلف أبواب بيوتهن، نصف المفتوحة وهنّ يرسلن نظراتهن إلى المارة السكارى، الذين يقطعون الدروب الضيقة جيئة وذهاباً، وفي عيونهم تلتمع رغبات مدوية، يتكئون في سيرهم على الجدران، وفي أفواههم قيء يخرج على شكل شتائم وسباب في وجه بعض العاهرات المختفيات وراء عباءات سوداء.

ـ لا أصدق أنها بيوت دعارة.

وعندما التفت رأيت أمين المكتبة يقول لي:

ـ أهالي القلعة يطردون العاهرات.. لكن بعضهن يبقين هنا بالعناد والمكابرة في حين تضطر بعضهن الأخريات للنزول إلى قاع المدينة وإذا اكتشفوا واحدة هنا يبقرون فرجها بالملاعق.. والسكاكين.

ـ ماذا تقول؟

ـ أو يذبحونهن ويضعون رؤوسهن المقطوعة على عتبات بيوتهن.

وبعد لحظات صمت قال بحسرة:

ـ هنا الملجأ الوحيد لأرامل الحرب يا أستاذ.

ـ عجيب.

ـ لماذا كل هذا العجب، وهل يلتقي الشرف بالجوع؟

ـ في مدينتي يحدث هذا؟

ـ الرذيلة والفضيلة تنكران هذه الأرامل والجميع يصفعهن بالكلمات والبصاق.. لا أحد يتجرأ أن يقول من المسؤول عن مآسيهن.

دخلت كلمات أمين المكتبة إلى أعماقي كالنصل القاتل، ولو لم أرَ هذا الحيّ بعينيّ لما صدقت أمين المكتبة.

عاهرات! ساقطات! بنات هوى! مومسات!

هكذا يصرخ السكارى الهائمون على وجوههم، وهم يعبرون الأزقة أو يدخلون بيوتهن عنوة.

لا أدري ما الذي جعلني أفكر بأنهن انقرضن من الأرض، ربما انقرضن من ذاكرتي فقط.

كانت أصوات السكارى تتعالى وتكتظ في رأسي ونساء يدخلن إلى المنازل وأخريات يخرجن تحت جنح الليل، بعضهن يحملن باقة من البخور وينطلقن في طريق المقبرة، وأُخريات يحملن أطباق الطعام ويصعدن سلالم القلعة، فيما

تتناهى إلى سمعي أصوات تشبه طلق الولادة، تتدفق من بين الأبواب.

بعض النسوة كنّ يبالغن؛ يقفن بأجساد نصف عارية، في زوايا الشوارع، متحديات بذلك قوانين البلدية، تتغير الوجوه باستمرار، نساء يدخلن، ونساء يخرجن. وحتى لو كنت أرى الوجوه ذاتها، فإن الأصباغ والمساحيق وتسريحة الشعر تتغير باستمرار، مفاتن الأجساد لعبة بيد الريح تكشف عنها متى ما شاءت، يبدو أن هذا الحيّ الذي يثيره المارّة السكارى متبجحين ومزهوين برحلتهم وأموالهم، ومهما بلغت اللذة حدودها، فإنهن تخلين عنها، ورحن يدفن رؤوسهن في ذكريات رجال رحلوا، وإلى الأبد.

اقتربت من إحداهن، تفرست في وجهها المليء بالتجاعيد، همست لي محاولة إغوائي:

أعرف أن المرأة تتذكر أول رجل ضاجعها لكن الرجل لا يتذكر سوى المرأة التي منحته اللذة.

ابتسمت وأضافت:

ـ تعال لنذهب.

قلت لها:

ـ إلى أين؟

ـ أنت تعرف.. إلى أين.

تسمرت في مكاني، محدقاً بالمارّة تارة والعاهرات تارة

أخرى، وجوههن حزينة كأنما تعلن الحداد على أزواجهن المفقودين في الحرب.

كان هذا الحيّ المحموم لا يعدو أن يكون غرسة واهية، ضعيفة، تقتلعه أدنى ريح تهب، أنفاس النسوة المنتظرات، من أجل كيس من الأرز أو رزمة من الأرغفة أو حفنة من الدنانير الممزقة، أصابتني بالخدر؛ وربما بالعجز.

نزلت سلالم القلعة الحجرية إلى قاع المدينة، مسرعاً، ألهث، وما تزال قهقهات زليخة الصاخبة تدخل مسام جلدي.. كالإبر وتذكرني بسطوة أبي الذي جئت لنقل رفاته، فوجدتني في مواجهة نفسي بحيث كدت أن أنسى المهمة التي جئت من أجلها.

التقطت أنفاسي بعد أن اتكأت على السلالم الحجرية النازلة من قمة القلعة إلى قاع المدينة، لأنطلق ثانية في لهاثي وراء سراب الكرسي الذي قذفته بقدمي قبل قليل، لعنت اللعبة التافهة التي نفذتها زليخة، ونسجت خيوطها في رأسي مثل صانع الدمى الماهر.

وتساءلت في نفسي:

هل يمكن أن تقوم زليخة بهذا العمل الدنيء بحقي وبحق أبي؟

لا أدري أكان ذلك حقيقة أم أنه من صنع خيالي المحموم في تلك اللحظة.

لم تكن القلعة سوى ذلك الحصن المنيع الذي يحجب عنا

رؤية حقائق حياتنا، ذلك العالم الذي يزداد غموضاً كلما توغلنا فيه.

من أسفل المدينة، بدت القلعة كجبل شاهق معلق بالسماء، لا تظهر منها سوى مصابيح لاهثة، كان عليّ أن أقطع مسافة طويلة قبل الوصول إلى الفندق.

لم يبق سوى ساعات قلائل على انبلاج الصباح، وقدوم حفار القبور إلى الفندق في الموعد الذي ضربناه للقيام بنقل رفات أبي.

بينما ترن في أذني كلمات زليخة:

ـ الذي مات لم يكن أباك...

الذي مات لم يكن أباك...

الذي مات لم يكن أباك.

8

تكاثرت الطوابير البشرية وازدحمت عند بوابة المقبرة القديمة مع اقتراب انتهاء مهلة نقل الموتى، وبدأت تتسلّل بغضب صامت، وتهجم بالمعاول والفؤوس على المقابر لاستخراج رفات موتاهم، وجوههم انعدمت فيها التجاعيد وبدت صقيلة، محترقة من أثر أشعة الشمس، وكأنه نوع من الطفح الجلدي، دفعهم إلى تهشيم المرايا المثبتة على شواهد القبور، خشية أن يروا وجوههم معكوسة فيها، رياح خفية تنقل صرخاتهم المدوية.. مزيج من نشوة وابتهاج وسخط.

فراشتان صفراوان خفقتا وحطتا على قدميّ، ثم رفرفتا وحلقتا عالياً فوق أسوار المقبرة ثم استحال لونهما الأصفر إلى بياض شفاف في المدى البعيد، وبمرور اللحظات تحولتا إلى طائرات ورقية تحلق في رقعة السماء وتسحباني بخيوط رفيعة من أرض المقبرة، ماذا تفعل الفراشتان في المقبرة؟ فدبيب

النمل الأسود لا يجتمع مع الفراشات، بل يتصارع معها بعداوة غريبة، لا أعرف سرّها.

هل ثمة عيد يسمى بعيد الموتى هنا؟

كان على المدينة، إن لم يكن موجوداً، أن تسعى إلى تأسيسه، هذا هو يوم الموتى، شئت أم أبيت، جاءت الطوابير وكأنها حشود من الموحدين، يتجمعون أزواجاً ومجاميع، لم يكن من الممكن أن أنتشل نفسي، حتى فكرت كيف يمكن أن يحيا أهالي مدينتي دون هذا العيد، شيء غريب، نوع من التوحد مع الموت لم أكتشفه في أي مكان في العالم رغم أسفاري الطويلة.

ـ هل يعقل أن يتوحد أهالي مدينتي مع الموت إلى هذه الدرجة؟

كنت أشك أنهم يناجون الله الذي ملّوا منه، ربما كانوا يناجون العناية الإلهية الغائبة التي تكمن في مكان ما بين الغيوم، الوطن، الأصدقاء، الأقرباء، كلمات لم أسمعها أبداً هنا. كان البعض يفرغ حشوة مسدسه أو بندقيته في الهواء ليفرغ بذلك شحنة روحه، لكنهم كانوا يتمنون لو يفرغوا هذه الحشوة النارية في رأس من سبب لهم كل هذه الآلام، وهذا الموت المباغت والمرسوم والطوابير تتخبط في ممرات المقبرة وطرقاتها، يبكون الأحزان نفسها، يجاملون بالكلمات القسرية الروتينية أو يحتسون الخمرة من قنانٍ عبَّؤوها في أحضانهم أو يتبادلون أسرارهم أو يتقاتلون فيما بينهم إثباتاً لذواتهم، كانوا

يريدون بذلك أن يقفزوا فوق عزلتهم في هذه المدينة عن طريق الاحتفال بهذا الموت، بهذا اليوم، الذي لا بد من أنه سيطبع الذاكرة، وفي هذا اليوم تقاطعت البروق والهذيانات لتكون السطح الآخر من نفوسهم المخدوشة، هذا ما أراه، بشر يحملون بأيديهم أكياساً من القماش والخيش والورق الأسمر يعبئون فيها رفات موتاهم، تراب أحمر تتخلله نفوس، ونمل، ونزوات كمدها البطش، وعلماء الاجتماع، وها هي الجموع البشرية، التي كنت واحداً منهم، جئت مثلهم لنقل رفات أبي، وإنقاذ قبره قبل أن يتحول إلى لا شيء، وكل هبات الحرب وعطاياها لم تكن إلا فخّاً نصبوه لاصطياد أجساد الموتى وأرواح الأحياء، ومخدراً أفرطوا في بثه بعروق هؤلاء الناس. كان هذا اليوم يصلح لأن يكون احتفالا بزوال التناسل البشري وفنائه، ويتحول إلى استثمار سرمدي، لا يمكن إحصاؤه أو قياسه إلا بتزايد الموتى، ومن ثم بالتمثيل بجثثهم ورفاتهم لكي لا يتذكروا رغماً عن أنوفهم بأن مفتاح الحياة بيد رجل واحد، لا يمكن التكهن بمكان إقامته أو ساعات تنقلاته أو لحظات استنشاقه للهواء. ففي هذا الصباح الذي جئت فيه إلى المقبرة، بعد كوابيس أمضيتها ليلة الأمس، مع أمين المكتبة وزليخة مطلقة أبي في القلعة، لم يكن إلا نقطة يبلغ فيها نهايته ويفنى، وكل من يمارس الطقوس احتفاء بفنائه إنما هو مكرس لاستبعاثه من جديد، كل النزوات، يوم الموتى، وهل يبدأ عيد الموتى بتحويل المقابر إلى أماكن جديدة، ربما فقط للتذكير

بأنهم قادرون على التحكم حتى بالموتى، فكيف بالأحياء الذين هم قيد إشارتهم متى ما شاؤوا، هل أعادنا يوم الموتى إلى أيام العطايا والقرابين، عندما صار أهل الضحايا يحصلون عليها لقاء دماء أبنائهم.

عربات المشيعين والسيارات المصنوعة من ألواح الخشب والمعدن، اصطفت بمحاذاة أسوار المقبرة لعجزها عن صعود المماشي الترابية المتعرجة في قلب المقبرة.

قال لي حفار القبور الهرم وهو يتلمس تلك المماشي:

ـ آه لو تعلم ماذا سيشيدون على أرض المقبرة يا أستاذ؟

ـ ماذا؟

ـ صالة سينما تعرض الأفلام فوق أرواح الموتى!

ثم رفع يده إلى السماء مخاطباً:

ـ عسى أن تحترق بهم السينما.

تمتم بحسرة:

ـ أرجو المعذرة، يا أستاذ، فالمبلغ الذي طلبته منك لا يساوي شيئاً.. لم يعد للنقود أية قيمة.. كل شيء فقد قيمته بعد الحرب.

وبصوت منخفض قال لي:

ـ هل تدري مَنْ وراء تحويل المقبرة؟

ـ لا!

ـ المهربون.. المهربون هم الذين يحكموننا الآن.

ولو كان لمدير البلدية قيمة لأوقف تحويل المقبرة حالاً.

بعد لحظات، أضاف:

ـ لكن لولاهم لكنّا نموت من الجوع.. حتى مدير البلدية كان يموت من الجوع.

ثم صرخ بانفعال مفاجئ:

ـ لو كان هذا الجرذ جريئاً لأخرج رأسه من السرداب وقت الحرب.

لم يكن أحد من المشيعين يعبأ بصراخ حفار القبور.

ثم بدأنا نسير بخطوات بطيئة في أرض المقبرة، نمعن النظر في شواهد القبور المتناثرة، كان قبر أبي يتراءى لي مثل واحة بعيدة أو ظل شجرة في صحراء مترامية الأطراف، ها أنذا أطأ بقدميّ أرض المقبرة التي دفن بها أبي ذات يوم، آنذاك كنت لا أزال هائماً في بطن أمي. ومهما أجهدت فكري فإني لن أتبيّن أي معنى لأن يرمي أبي حياً منه في أحشاء أمي ويرحل هكذا، لم أتبين أي مغزى يجده رجل كأبي يسير نحو هاوية قبره، وهو يتعلق بأهداب طفل مجهول لن يراه أبداً.

هل أراد أن يحمي أمي.. من جنون زليخة.. ومؤامرات سلطانة؟

أم هل كان يريد من آخر نطفة يحملها في صلبه أن يخلق بطلاً يحمل مدينته في قلبه وعقله؟

ثم التفت إليّ حفار القبور الذي قاطع شرودي بكلماته:

ـ المقبرة توسعت منذ رحيلك، سنعثر على قبر أبيك بعد قليل لأنني حددت مكانه بالأمس.

أردت أن أسأل عن اسم حفار القبور لكنني ترددت، وبقيت أخاطبه كمجهول، رجل وهمي لا اسم له، تتوارثه المقابر في كل زمان ومكان.

ـ وهل تتذكر يوم دفنه؟

ـ كيف لا؟ لقد دفنته بيدي هنا.. وضعت جسده الناحل في اللّحد وكدست الأحجار حوله، فنام في عزلته.. ولم يشيعه سوى أصدقائه.

قل لي بربك من هم أصدقاؤه؟

ـ وهل يهم هذا بعد مرور كل هذا الزمن؟

ـ كل شيء يخص أبي مهم.

ـ هناك أصدقاء وهناك معارف لا يمكن وضعهم على قدم المساواة.

ـ أجل.

ـ مدينتنا هي امتحان للعزلة، لم يكن يعرف أحد بأهمية والدك إلا بعد وفاته، حتى زوجته المطلقة شعرت بأهميته ليس عندما غادرها بل عندما غادر الدنيا، لأن وجوده على قيد الحياة كان يبعث الطمأنينة في نفسها، يكفي أن تسمع أخباره من بعيد لتشعر بالطمأنينة، عندما مات أبوك، جاءت من العاصمة وهي تصرخ وتلطم وتريد أن تدفنه في بغداد لكن والدتك رفضت وألحت على دفنه في المدينة التي احتضنته، لذلك قررت سلطانه البقاء والإقامة بالقرب منه بعد ذلك لأنها أرادت أن تنتصر لإرادتها في التقرب منه بعد الموت فيما

هربت زليخة إلى القلعة، وسكنت هناك في الأعالي، واعتصمت هناك، وهي تلطم خديها، وتمزقهما بأظافرها، وتزور قبره بين آونة وآخرى.

وبعد فترة صمت طرق رأسه قائلاً:

لا أنسى كرم والدك أبداً، ولو أنه لم يكن يصلي، فقد جلب ذات مرة، مائة إبريق ماء من بغداد كهدية إلى المسجد، وقام بدفن الرجل الغريب الذي انتحر ورمى نفسه من أعلى المنارة ولكن إمام المسجد لا يتذكر هذه الحسنات، وقد بخل عليه بتابوت خشبي مهلهل من أجل نقل جثمانه إلى المقبرة، فاضطررنا إلى نقله على خشبة، وشددنا جنازته بالحبال.

ثم وقف حفار القبور وسط المقبرة، وتطلّع في فنائها، وصرخ كأي ممثل يسيطر على فناء المسرح:

ـ أنا الحيّ الذي استنشق أنفاس الموتى، أدوس ترابهم وأتذكر قصصهم.

بعد ذلك ابتعد عني مهرولاً يبحث عن قبر أبي في بقع متناثرة، وما إن استدرت حتى شعرت بقطرات ماء تتناثر على وجهي، شيخ ذو لحية طويلة، يرتل، ويرش من إبريق نحاسي رحيق الورد على رؤوس المشيعين، ومن بعيد تراءت لي امرأة عمياء، تتكىء على عصا؛ يقودها صبي صغير؛ بين الحفر والقبور؛ تحمل بيدها خصلات شعر أسود؛ باحثة عن قبر ابنها. وما إن أرسلت نظري بعيداً، على امتداد المقبرة، كي استكمل رؤية ذلك الفناء الذي كان يكتمل شيئاً فشيئاً حتى

ناداني حفار القبور مشيراً إلى قبر أبي. وما إن قطعت المسافة إليه حتى وجدته منكباً على حفر القبر بالمجرفة والمعول، فطلبت منه أن يحتفظ بالشاهدة الرخامية التي أوصتني أمي بنقلها مع الرفات، فلم تمض ساعة حتى حفر القبر ثم أخرج كيس قماش من جيبه ووضع فيه رفات أبي بعد أن شدّ فوهته بحبل رفيع وأعطاني إياه كمن يسلم أمانة، حملت الكيس، بينما حمل هو الشاهدة الرخامية.

ثم توجهنا إلى الفندق بصمت، أمضينا النهار بأكمله في المقبرة. بعد ذلك، وضع الشاهدة الرخامية في غرفتي، بينما وضعت الكيس الذي يحتوي رفات أبي على الطاولة.

قال لي حفار القبور:

ـ الوقت متأخر الآن، سندفنه غداً.

ظل صامتاً للحظة وأضاف:

ـ طريق المقبرة الجديدة محفوف بالمخاطر والأهوال.

فكرت أن أضع رفات أبي في الخزان الخشبي ليكون في أمان، فتحول الزمن إلى زمن آخر، أسطوري ينطلق إلى المستقبل، والمكان تغير شكلاً وانسلخ عن بقية المدينة، وكأن المقبرة لم تكن أبداً مكاناً مطروقاً، هكذا كان يدور كل شيء كما لو لم يكن يقيناً أو كماً في الأحلام، وأصبح كل شيء مباحاً في هذه المقبرة، وأصبح العيد قداساً أسود لتمجيد الموت، وأن نقل المقبرة أخذت تستثير الانبعاث والغثيان والرغبة والعربدة. لا أدري لماذا اكتسى الناس بهذا الغموض،

الكل انتشر في غبار المقبرة، وتحول نقلها إلى ما يشبه الغربدة أو سهرة ماجنة، وخرجت الجموع من عزلتها، وانغمسوا في نبش القبور، الدم.. الزاد المقدس، لم يعد موجوداً هنا، وربما امتصته التربة وذوبته في ثارها، أو في رفات الموتى.

هاهو الموت يتحول إلى فم هائل لهم لا يعرف الشبع، كأن الموت الجماعي الذي فرض هنا ما هو إلا إرضاء لنزوة ما، الموتى، ضحايا الحرب. إنهم يمتهنون الموتى ويحيلونهم إلى محض شيء، وما الفرق بين قتلهم في خنادق الحرب، أو حرقهم بالنار مثل أية نفاية، اختفى القاتل ولم يعد أحد يراه.

كل هذه الجموع في المقبرة، وهي تشيح بوجوهها، وتولي الموت ظهورها، وبعزوفها عن تأمل الموت تنغلق انغلاقاً قدرياً إزاء الحياة، وجدت نفسي أنفتح على الموت، وأتأمله، وأحاول أن أدغمه بلذة الحياة، بلغة المرايا والأصداء لأفهم كل ما يدور حولي، كل شيء يتهافت ويغرق في بريق الأفكار.

وهكذا آثر الجميع أن يهرعوا إلى نقل قبور ذويهم حتى الفجر، لأنهم كانوا يتحسسون بالخطر، خطر تنفيذ البلدية لقرارها الحاسم في هدم القبور بالجرّافات بعد مرور ثلاثة أيام فقط على انتهاء المدة المقررة. فقد اضطرت الجموع أن تقضي الليل في العراء تحت قبة السماء، والمتعبون منهم راحوا ينامون في البيوت المجاورة، التي فتحت أبوابها للغرباء

القادمين من مدن نائية، وكانت النجوم المتلألئة تلقي ضوءاً أزرق خافتاً، وتضفي هالة سحرية على المكان، وضاع الزمن، في هذا الخواء الذي لا نهاية له، وكان حارس المقبرة يلقي بدلوه في البئر ويستخرج الماء، ويوزعه بالطاسات النحاسية للعطشى، وبدا لي أولئك الناس كأنهم جاؤوا من ضباب التاريخ الغابر.

كان حفار القبور يراقب شرودي دون أن يقاطعني، وعند باب الغرفة ودعني واتفقنا على موعد دفن رفات أبي في صباح الغد وهو يقول لي:

ـ لم يعد الوقت ملائماً للذهاب إلى المقبرة في هذا الظلام.

قلت في نفسي وأنا ألملم كيس القماش الذي يحتوي على رفات أبي:

ـ أليس القبر هو الظلام؟

9

ما إن وضعت قدميَّ على سلالم الفندق الحجرية، حتى بدأت أفتش، بطريقة آلية، عن مفتاح غرفتي؛ لكن يدي اليسرى عثرت على ورقة البرقية المشؤومة التي التصقت في قعر جيبي. ألقيت عليها نظرة لامبالية، كوّرتها مثل حبة صغيرة وقذفتها في صندوق القمامة الموجود في الممر الضيق. وما إن دخلت، حتى وضعت الكيس الذي يحتوي على رفات أبي على الطاولة الخشبية، حيث ارتعش إثر هبوب ريح دخلت من النافذة، لذا أغلقتها خشية أن يسقط الكيس ويتناثر رفات أبي على أرضية الغرفة. كان لا بد لي أن أضعه في الدولاب وأقفل عليه بالمفتاح، خشية أن ترميه منظفة الغرفة في برميل القمامة خطأ دون أن تعلم بأن كل آمالي تصب في هذا الكيس المليء برفات أبي الممزوج بالتراب.

في هذه الليلة أدركت أن برقية أمي قد بعثت ما يشبه اللوثة في عقلي بحيث لم أعد أذكر تماماً إن كان لي أب.

لكنه نفخ فيّ شيئاً من روحه وأن اضطراب روحي لايعدو أن يكون جزءاً من اضطراب روحه كما قالت لي أمي ذات مرة.

وكل ما ورثته عن أبي، فيما عدا أدوات حلاقته القديمة، الفرشاة والطاسة والمرآة، هو ابتسامته قبل أن يفارق الحياة. الآباء يورثون أبناءهم كنوزاً.. وبنايات شاهقة، وأكداساً من الأموال؛ ولكنهم عادة ما يغضبون، لا لشيء إلّا لأنهم لم يتمتعوا بحياتهم؛ وتركوا كل شيء لأبنائهم الشرهين. كما أن أولئك الآباء المحترمين غادروا عالمنا هذا دون فضائح.. لا خمر، لا قمار، لا نساء، لا جنون، لا خيانة، لا نزوات. هكذا رحل أبي تاركاً لي أمي.. وزوجتيه المطلقتين: زليخة تسعى لطرد الجنون من رأسها.. وسلطانة.. تنزع عن جسدها كفن الطهارة، المغلف بفجور خفيّ.

ـ كيف يهذي القمر يا ابني؟

قالت أمي، ثم راحت تمسّد خصلات شعري الذي تركته يطول مثل شعر صبية صغيرة كأنها تعيدني إلى طفولتي بينما كنت ألامس أناملها الدقيقة وبشرتها الناعمة كالحرير، كنت أرى أدق التفاصيل في عينيها الصافيتين المتوقدتين. كانت تعرف جيداً أننا كنا في ليلة لقائنا نناجي القمر عبر صفحة زجاج النافذة الواسعة لفندق (شيراتون)!

ضحكت أمي قائلة:

ـ أنظر كيف يسقط القمر في نهر دجلة؟

ومنذ تلك اللحظة، تولدت بيننا صداقة جديدة.

فلم نعد بحاجة إلى ما يسمى بهرجة اللسان.

قلت لها:

ـ إذن القمر يهذي.

ـ بل ويتناول معنا وجبات الكلام.

ثم نامت، وتركتني وحيداً أصغي لهذا الهذيان الصاخب الذي يتحول إلى صمت حين يدخل غرفتنا.

نافذة غرفة الفندق، تطلّ على قضبان سكة الحديد. لازالت القطارات الليلية تقتحم بصفيرها ودخانها مدينتنا.

لا أسمع في هذه الليلة سوى صهيل الخيول الذي يلتهم الصمت بين حين وآخر. الحوذيون تخاصموا هذا الصباح حول أمراض الخيول، ثم انتظموا في تظاهرات احتجاج، وساروا إلى مبنى البلدية، راكبين خيولهم، ومتنكبين سياطهم إثر غلق محطة القطار، كانوا يفكرون بعلف خيولهم أكثر مما يفكرون بطعامهم. مدير السيرك عطف عليهم في هذا النهار وسمح لخيولهم الهرمة المشاركة في ألعاب السيرك لقاء أجور معقولة.

هذا ما سمعته من أحد الحوذيين، لكنه لم يكن قادراً على كبح جماحه وهو يقول:

ـ وماذا نفعل بعد أن يرحل السيرك؟

لم تكن لديَّ أية إجابة لأنني لم أكن أفكر إلّا برفات أبي.

لعلهم يفكرون بنقل نعوش الموتى إلى المقبرة الجديدة بعد أن أصبحت بعيدة خارج المدينة، هذه نصيحة زوجات

الحوذيين، الساهرات على تنظيف أجساد الخيول من حشرات جديدة لصقت بها منذ أن بدأوا بنقل النعوش من المقبرة القديمة.

كانت عينا القابلة العجوز تتألقان، لتسبرا أغواري قبل أن تموت، وتمسك بالكلمات وتغمسها في لوعة غريبة، ولو لم تنذر نفسها للولادات، لأصبحت إحدى ساحرات هذه المدينة، وربما إحدى حكيماتها، فالزمن لم يكن بالنسبة لها سوى تلك اللحظات التي تفرز بها الطلق الأخير عند الولادة. بينما كنت أحصي الدقائق من أجل نقل رفات أبي والعودة إلى مقر عملي.

ـ أنت يا مَنْ قطعتِ بمقصك حبل سرّتي من أحشاء أمي؛ لتربطيني بهذا الكون.

جاء صوتها ضعيفاً وكأنه يخرج من بين أحجار القبر، وهي تقول:

ـ هذا واجبي يا ابني.

ـ وما تزال آثار أصابعك مطبوعة على جسدي كالوشم.

تذكرت قول سلطانة:

ـ كيف لا تموت القابلة المسكينة في زمن الحرب؟

ثم انطلقت في بكاء بارد:

ـ أتدري لماذا تزوج أبوك بعدي؟

ـ لا.

ـ لأنني عاقر.

ـ عاقر!

ـ العاقر بئر جافة لا ماء فيها ولا دماء ولكنني كنت أعوض ذلك بشيء آخر.

ـ ما هو؟

ـ أنت تعرف ماذا، أبوك ليس رجلاً سهلاً يوافق على إنفاق حياته مع أية امرأة.

ـ وزليخة.

ـ بلهاء.

بعد لحظات صمت قالت بابتهاج:

ـ لو لم أكن عاقراً لكنت ابني الآن؟

كانت رائحة الخمر تفوح من جسدي بأكمله وتمنعني من النوم لذا سارعت إلى وضع نفسي تحت رشاش الحمام حتى رأيت خطيئتي تملأ الغرفة وتكاد تخرج أذرعها وأرجلها وأجنحتها من النافذة، الخطيئة التي كنت أفكر باقترافها. انفتحت عينا أبي في الفراغ عندما انفتح باب الخزانة، فشعرت بأن الأرض تنشق تحت قدميّ. هل أتركه وحيداً هذه الليلة نائماً في الكيس؟

بدت لي هذه الليلة من أطول الليالي في حياتي، ليلة سرمدية، تمتص كل أشعة الشمس وتحولها إلى ظلام مكفهر بارد، لا زال ظلام هذه الليلة يغطّ في قيلولته، عازفاً عن تبديد تلك الثقة العمياء في أمي، بعد أن جَمَعتُ خيوط قصة أبي، وهل جمعتها ياترى؟ وهل يمكن جمع نتف الحياة

وتشكيلها من جديد في لوحة المدينة السرمدية؟ كان لا بد من فنان تشكيلي يمتص كل أصباغ الطيف الشمسي ثم يقذفها بحركة راقص على جدران المدينة لكي يصوغ تلك الرعشة التي نعجز عن تفسيرها.

كانت أمي ترفع رأسها إلى السماء قائلة، متضرعة:

ـ عاقبني، يا رب، إن كنت مخطئة. زليخة مجنونة.. وسلطانة خائنة!

وكلما حاولت، وأنا طفل، أن أفهم سرّ معاركهن، كانت أمي تدفعني خارج عوالمهن.

ـ عندما سمعت كل من زليخة وسلطانه بموت أبيك جاءتا من العاصمة واستقرتا هنا. كانت سلطانه تلطم خديها، تمزق ثيابها، حتى غطينا جسدها العاري بالشراشف، وهي تصر على دفن نعشه بنفسها. قلنا لها تمهلي يا امرأة، وصية الميت مقدسة لكنها منذ ذلك اليوم، لم تتوقف عن تهديدنا بنبش قبره ودفنه في العاصمة.

ـ حاول أن تحافظ على رفات أبيك لأنها قادرة أن تبعث أحداً لسرقته من غرفة الفندق، لا عليك فأخبار العثور على رفات أبيك عندها، جاء به حفار القبور بنفسه، إنه بائع الأسرار، بالتأكيد نسيت أن تقول له حافظ على هذا السر.

ثم أضافت بعد لحظات:

ـ سلطانة.. يا فضيحة الفضائح.

جاءت تزغرد وتصرخ: مات حبيبي. وانهالت على نعشه

المسجّى على الأرض تقبله، وتتوسل إليه كأنها تريد أن تكفّر عن خطيئتها.

بعد ذلك انطلقت أمي غاضبة:

ـ لم تنته مشاجراتهن حول أبيك. لا تزالان تفكران بأن أباك كان يمتلك ثروة طائلة أخفاها في مكان ما، وتنتظران شيئاً يخرج من باطن الأرض، لا أدري كيف عثر أبوك على هاتين المرأتين.. إنهما لا تخجلان من الحديث عن فحولته الرجولية حتى الآن.

كان الكيس الذي يحتوي رفات أبي قد وضعه حفار القبور على الطاولة. حضوره طرد النوم من عيني. خيل إلي بأن ثمة حديثاً لم يكتمل بيننا. ربما هي فرصتنا الأخيرة لاستكماله. وضعت الكيس بجواري على السرير، لكي يكون أكثر قرباً مني، ثم سحبت الغطاء إلى حدّ رأسي ورأسه. لم يكن شخيره يزعجني أبداً، إنه القرين الذي عاش معي منذ ولادتي، وهو يصرّ الآن، على مواصلة حياته بعيداً عني. كنا في نعشين ملتصقين، سرير لا يشبه أي سرير آخر. ها أنذا أجتمع مع أبي وجهاً لوجه، في غرفة واحدة لأول مرة، وكلما مضى الليل إلى أقاصيه، تحول أبي إلى قريني ـ هذه الكلمة التي كانت تخيفني منذ الأزل.

لا أدري كيف انطبعت صورته على تلك المرآة المستطيلة المعلّقة على بوابة الخزانة الخشبية، خيّل إليّ بأن المرآة احتفظت بصورتي التي لم تتلاشَ، بل أصبحت ضرباً من

السحر وشكلاً من كن فيكون. ولأنني عشت منذ صغري على هذه العبارة وشككت بها، قلت في سرّي:

كيف يحصل أني أرى حركات جسدي معكوسة في المرآة؟

إذا فتحت عينيّ، أغمض عينيه، وإذا جلست، انتصب بقامته لكنه لم يكن يخالفني لا في التنفس ولا في النوم، لا لم يخدعني نظري، وكم تمنيت أن يكون قريني الراقد بجواري مجرّد وهم أو هلوسة لكن نبضات قلبه الخفاقة أخذت تدخل أذني بإيقاع رهيب. وحين ركزت نظري في المرآة، اكتشفت بأنه لا يختلف عني في ملامحه. أجل هذه هي صورته الشمسية التي أعطاني إياها كاتب النفوس في الحانة وما أثارني فيها هو القوة التي يواجهني بها، فأضطر حينها لخفض رأسي وإرخاء جفنيّ غير القادرين على مجاراة نظراته الحادة. حين حاولت إخفاء كيس الرفات في الدولاب الخشبي، شعرت بالخجل كما لو أنني أريد التخلص منه. لم أكن أتصور بأننا سننام معاً في سرير واحد وتحت سقف واحد ذات يوم.. ذلك الأب الذي لم أرَ سوى رفاته.

كان النوم يتسلّل إلى عينيّ المخدرتين، عندما سمعت طرقات حادة على باب غرفتي، لم أكن قادراً على النهوض من سريري. وما إن توقفت الطرقات، حتى اندفع شخصان إلى غرفتي، بشاربين كثين، يرتديان بدلتين خاكيتين، أخذا بتفتيش مخابئ الغرفة، بعثرا حقيبتي، ثم رميا ملابسي باشمئزاز على أرضية الغرفة، وفي لمحة خاطفة، تذكرت تحذيرات سلطانة:

ـ الفندق معرّض للتفتيش اليومي.. وأنت تعرف لماذا هجرت المدينة؟

كان الشخصان يغرسان نظراتهما فيّ ويفتشاني في كل مكان، إلى ما تحت أظافري ظنّاً منهما بأني أخبئ شيئاً، أرادا أن يقلعا أظافري لكنهما عدلا عن ذلك، ثم فتشا جيوب سترتي، فعثرا على صورة أبي، قهقها وكأنهما وجدا وثيقة خطيرة لإدانتي:

ـ ومن أين حصلت على هذه الصورة؟

قلت بكل تهذيب:

ـ من كاتب النفوس.

ـ هذا العجوز.. الذي لا يحترم أمانة الوثائق الرسمية.

ـ ولكنها صورة أبي.

أخرج أحدهما عود ثقاب، وأراد أن يحرق الصورة.

توسلت إليهما وأكدت لهما بأني لا أمتلك غير هذه الصورة، ثم جاءا نحوي، يطوقاني بأيديهما كأنهما يريدان خنقي. كاد سقف الغرفة ينطبق على صدري ويأتي على ما تبقى من أنفاسي.

وسرعان ما نهضت من هذا الكابوس الذي كان يلاحقني.

فتحت عينيّ فلم أجد أحداً.

كانت الغرفة هادئة ولا يقطع ذلك السكون غير قطرات الماء النازلة من حنفية المغسلة التي نسيت إغلاقها بإحكام

الليلة الماضية. هرعت لأضع رأسي تحت حنفية الماء البارد لأطرد هذا الكابوس الذي التصق بجلدي كقملة جائعة.

حاولت أن أصرخ. لا صوت. لم يصبني العيّ. لا.. لا.

ربما كنت من أفصح الناس غير أن العالم بدأ يغادرني.

زحفت الشمس وازدحمت الغيوم في سمائي. لم يكن للغيمة أن تغادر بهذه السرعة. كل هذه الآلات الجهنميّة. وبكل هذا الغوص في المتناهي في الصغر والمتناهي في الكبر. سليل لغة زراعية في عالم غزو الفضاء والمركبات الكونية. أستيقظ كأنما على أثر حرب لغوية خفيّة وقعت أحداثها بالقرب مني. فلا أجد في هذا العالم سوى أنقاض لغتي. أرى نفسي أحد المهزومين الذين يبحثون في أرض المعركة عن كلماتي التي تناثرت بين القنابل والرصاص والصواريخ، أستخرج كلمة سيف وأضعها في غمده، فلا أرى من هذا السيف سوى بريقه، كلماتي التي تعلمتها مع حليب أمي ضاعت من شفتي. ولم أعد قادراً على التلفظ بها، لا أعرف سوى حروفها الأولى. في تنقيباتي لم أعثر إلّا على كلماتي في اللغات الأخرى. أبتسم في سرّي عندما تتناهى إلى سمعي كلماتي المسروقة. أخرس دون أن ينعقد لساني.

أليس الجنون بذرة تبدأ في الرأس لتنتهي عند الكلمات؟

هكذا لم أستطع مخاطبة أبناء مدينتي الذين أصابهم العي مثلي أيضاً.

وأمي: كيف لي أن أخاطبها وأتحدث لها عن مشروع نقل رفات أبي؟

لم تبق لي سوى ذاكرة واهنة، منطفئة تلهث ورائي خشية أن تطويها رياح هذه الليلة.

كانت أمي تضع على رأسها وشاحاً أبيض، وتخرج سرّاً من منزلنا.

لم أكن أعرف إلى أين تذهب في تلك الليالي؟

ذات ليلة، تتبعت خطواتها اللاهثة، فرأيتها ترش قبر أبي بماء الورد، وتوقد فوقه أعواد البخور. اختبأت خلف أحد القبور العالية حتى غادَرَتْ، تصاعد دخان البخور الممتزج برائحة التراب المبلّل إلى أنفي، فنمت على قبر أبي حتى الصباح إلى أن أيقظتني أشعة الشمس الحارقة. وعندما نهضت، رأيت رجالاً يحفرون قبراً بجوار قبر أبي. وبعد أن انتهوا غطوه بأكداس التراب بينما أخذ المشيعون بالرحيل.

بدأت أسمع أنشودة يرددونها مثل التراتيل:

«خرجت من الرحم وها أنت تحلم بالعودة إلى الرحم».

وكنت أفكر بالأرحام التي تلفظ أبناء مدينتي إلى جوف الحرب دون مبالاة.

كانت الريح تبعث التراتيل التي تتناقص بالتدريج إلى أذني.. ومنذ تلك الليلة لم يغمض لي جفن، أفكر: أين أنا من هذا الرحم الآن؟

بدأت الآن أفهم لماذا كانت زليخة وسلطانة وأمي يجتمعن

في قعر تلك الغرفة المظلمة، يتحدثن، يتصارخن، وهنّ يستحضرن العقاقير.

هل كنّ يعرفن بمرض أبي؟

بدأت أتساءل في نفسي:

هل أصابه المرض قبل ولادتي؟

قال لي أمين المكتبة حازماً:

ـ منذ حملت بك أمك، بدأت صحته تتردَّى.

كان يعتقد بأن حياته انتهت حين بدأت حياتك. لم يفعل ذلك إلَّا ليغوص في عالم الانتحار.

هل كان ذلك أبي أم أن ثمة رجلاً آخر قذف نطفته في أمي؟

هل كان لأمي عشيق آخر؟ من يعرف؟

بل من يتجرأ أن يسأل أمه هذا السؤال الجارح؟

والعار يكلل أكتاف المدينة بزهور برية، ولعل تلك الزهور أوهنت وعجزت أن توخز كبرياء الرجال.

لا ضير في هدر كل كبرياء أبناء المدينة أمام رجل واحد يصبح ويمسي أمام زهوه، الذي يمسده مثلما يمسد وبر قطة جامدة في زاويتها، وتتجلى تعاسته في أنه يرى هذا الزهو يراق على الطرقات أمام المرأة الموطرة بالمرمر مثل شرف المومسات الذي اختلط بالدماء، وراحت جماجمهن تلعق هذا الزهو على عتبات بيوتهن نصف الموصدة. ولعله يصرخ في قرارة نفسه، ليراق جميع كبرياء الرجال ما دام زهوه يفيض

عليهم كالفيضان، أجل بل الطوفان من بعده، ولتتحول جميع جنائن دجلة المتخيلة إلى صحارى.

قد تكون حجبت عني هذا السرّ مثلما حجبت عني سرّ مرضه.

لقد استقبلت كل المعلومات عن حياتي وحياة أبي من المرايا.. تلك التي تنتصب أمامي أينما ذهبت لتقدم لي صورة زجاجية، فيما تجتهد لإبقاء الحقيقة بعيدة عني. قد تصلح المرايا للعشاق الذين ينظرون إلى وجوههم ويتبادلون كلمات الاعجاب ليل نهار. أما خيالنا، فهو بعيد عن هذه المرايا، هذا الخيال الهرم المقطوع اليدين والقدمين الذي يفترض أن يتنحى تاركاً المجال أمام ذلك الخيال الآخر.. ما وراء الخيال، وإلا فخيالنا في طريقه لأن يصبح حجارة خشنة وقاحلة وجزءاً من حياة الأشخاص الذين نلتقي بهم كل صباح. يتآكل الخيال مثلما تتآكل رؤوس النخيل، بحشرات لا أسماء لها.

لقد تآمرت عليّ كل من زليخة وسلطانة وأمي.. ضاربين حصاراً عليّ، وكل واحدة منهن لعبت لعبتها:

زليخة، لازالت محشوة بالجنون. أليست لعبة الكرسي إحدى مراياها.. ذلك الجنون الذي طفح من رأسها ودفعها للضحك عليّ وعلى وجودي هنا.

وسلطانة.. الماكرة، تعرّت أمامي، وحوّلت جسدها إلى مرآة قاتلة وهي تجرّني إلى الحضيض والخطيئة.. والانتقام.

أو ليست برقية أمي مرآة خادعة أيضاً.. تلك الورقة الزرقاء المنقوشة بالكلمات. الكلمات أكبر مرآة عرفتها في حياتي.

كنت أعتقد بأن كل شيء انتهى بموت أبي، إذاً ماذا أفعل هنا؟

وتساءلت في نفسي:

أليست نقل المقبرة تلك نزوة من نزوات الملوك أو الآلهة أو الشياطين؟

لم يبق لي سوى نهار واحد وينتهي كل شيء.

كنت أعتقد بأنّ هذا الهذيان، بكل جبروته، كان سجيناً في أعماق الأشخاص الذين التقيت بهم.

وربما فجّر رفات أبي كل هذا الهذيان.

كم الساعة الآن؟

لايبدو الليل بريئاً كما كان.

ثمة هيجان غير مرئي يختبىء تحت العيون.

ها أنذا أنتظر الفجر بنفاد صبر، ماذا أتذكر الآن؟

أبناء مدينتي، الغارقين في أحلامهم وكوابيسهم، وأحدهم مثل الصحراء، نقي وشاسع، مع كثير من القسوة والغموض، أراهم الآن من نافذتي، المصلون والسكارى يتضاحكون ويتصافحون ويتحاورون، كالأشجار أو كتماثيل المتاحف العتيقة. الليل يمضي بطيئاً؛ وتتكاسل الشمس في الظهور كأن الزمن هنا صندوق أزلي، ومن أحد ثقوبه تتساقط الأيام

والليالي.. بقايا الزمن، وهي: الحانة، والقلعة، ومحطة القطار، والسيرك، والثكنة العسكرية، والقوس المنخور.

قبل أن آتي إلى هنا، كنت أظن بأن الحل يأتي من مدينتي.

تراخى كل شيء الآن، وراحت الأشياء تفلت من بين أصابعي. هكذا ومع اقتراب الفجر، كنت أخاف على قريني وأشعر بألم يعتصر قلبي لأنه سيغادرني إلى المقبرة الجديدة بعد دقائق أو ربما بعد لحظات. وبينما كنت أنصت إلى نبضات قلبه، إنبعثت طرقات على الباب.

كان حفار القبور وابنه الصغير ينتظراني عند باب الغرفة. وحين لاحظ الحفار أني لاأزال في ثياب النوم، قال لي بتهذيب شديد:

ـ اعذرني من المجيء المبكر لأنه ينبغي دفن الرفات قبل طلوع الشمس.

طلبت منهما الدخول إلى غرفتي. كان حفار القبور يحمل معولاً، وابنه يحمل حقيبة خفيفة.

سمعت حفار القبور ينبهني، قاطعاً شرودي:

ـ هل تسمح لي بحمل رفات أبيك؟

أجبته:

ـ لا.. هذا من واجبي. يمكنك حمل الشاهدة!

قطعنا الممر الضيق، شاقين طريقنا نحو المقبرة الجديدة بينما كان نزلاء الفندق يصدرون شخيراً عن رؤوس تتعذب في كوابيسها هي الأخرى.

10

لم يكن يمزق هدوء الفندق سوى اصطفاق نوافذ الغرف المهجورة أو شخير النزلاء المتعبين الذي يخرج كالنزع الأخير للموتى، ورجال السيرك لايعبأون بأي شيء إلّا بتكرار ما فعلوه داخل جدران السيرك قبل قليل.

استلقيت على السرير بملابسي، متردداً في النوم. عسى أن تكون اليقظة سلاحاً أقتل به تلك الكوابيس التي أراها مثل غيوم صفر تنتظر على النافذة. اليقظة هي أيضاً المضي في دهاليز ذاكرة أبي. لذا لم يكن لي أي ملجأ آخر سوى محاولة رسم مشروعي الذي قطعت خمسة آلاف كيلومتر، لتنفيذه: نقل رفات أبي إلى المقبرة الجديدة.

اقترحت على حفار القبور الذي جاءني هذا الصباح مع ابنه تأجيل موعد دفن رفات أبي في المقبرة الجديدة، ما دام أبي أصبح في صحبتي الآن في الكيس الذي وضعته باعتناء في الخزانة الخشبية في غرفة الفندق، إذ لم يكن لي أي مزاج في

الذهاب إلى المقبرة الجديدة بعد أن أمضيت النهار بأكمله في المقبرة القديمة والليل بأكمله في الكوابيس بمواجهة أبي.

نظرت إلى وجهي في المرآة، وضحكت وأنا أنظر لأحد أسناني الذي اكتسى بصدأ أسود، بعد أن تذكرت قول أمي:

ـ إذا أردت أن تتعرف على وجه أبيك اذهب إلى دائرة النفوس وابحث عن صورته. وتذكرت الشخصين اللذين أرادا حرق صورة أبي.

وفي محاولة لاتباع نصيحة أمي ذهبت إلى دائرة النفوس، الكائنة في مبنى البلدية، وانتظرت أمام بوابة الدائرة المكتظة بالمراجعين إلى أن جاء دوري، فسألت كاتب النفوس عن صورته، فرفع رأسه من بين الأضابير المكدسة أمامه وقال بدهشة:

ـ تطلب مني صورة أبيك؟

ـ أجل. فقدنا جميع صوره في الفيضان.

ـ أمجنون أنت؟

من يبحث عن صورة أبيه بعد مرور أربعين عاماً؟

أردت أن أقول لكاتب النفوس إن أمي هي التي نصحتني بذلك لكنني خجلت منه. ثم أضاف محدقاً إليّ بغرابة شديدة:

ـ دائرتنا أحرقت جميع سجلات النفوس القديمة.

ـ حتى الصور.

ـ واستبدلناها بالذاكرة الالكترونية..؟

قهقه كاتب النفوس الذي أزاح نظارتيه السميكتين، وراح

يفترسني بنظرات فيها مزيج من الغضب والدهشة. تعجبت كيف لايزال هذا العجوز مستمراً في وظيفته.

كان كاتب النفوس يتحدث معي كأنما يتحدث مع شخص آت من زمان آخر. لعنت الشيطان والذاكرة الالكترونية.. التي كانت تحصي حتى نبضات قلبي وشعر رأسي.. لا أرى سوى شبحي عبر الأنامل السريعة التي تدق أحرف اسمي أينما ذهبت: المطارات، الموانىء، وكالات التأمين، وكالة تأجير البيوت، المصارف، دائرة الضرائب، وربما وكالات الزواج.. وكذلك الهجرة.. والتأشيرات.

ضحكت من نفسي في هذا النهار الموحش الذي أغلقت فيه المدينة أبواب دكاكينها وبيوتها احتفاءً بنقل المقبرة القديمة. هكذا تركت أضواء العالم الباهرة لألج في ظلام حفرة وأخرج رفات أبي بيدي لأدفنه في المقبرة الجديدة.

هكذا شعرت بأن أمي جرتني بحيلها العاطفية واستدرجتني بعواطفها لأعيش جحيماً مزدوجاً؛ وها أنذا أجد نفسي مخدوعاً بالكلمات، وأمنح ثقتي لحراس المطارات وابتساماتهم المراوغة.

أما كان من الأفضل أن تكلّفي حفار القبور بدلاً عني؟

أو تقوم بذلك إحدى زوجتيه المطلقتين، زليخة.. أو سلطانة.

لكن صوتها جاء، بكل صرامة، ليضعني في قلب معركتي:

ـ ينبغي أن تذهب وتنقل قبر أبيك بنفسك وإلا عذبك ضميرك إلى يوم القيامة.

هكذا أطلقتني أمي في متاهة القيامة التي وجدتها أمامي على الأرض قبل أن أراها في السماء. أجل.. ها أنذا أتجول برأس محشو بكل خرافات العجائز والعقائد المنهارة، وأتعثر ببقايا روث الحيوانات العابرة، أقتفي رائحة الموت من أقصى المدينة إلى أقصاها مثل ضبع يتشمَّم جثثاً ميتة، عفنة، ورائحة الموت وحدها تقودني بين المشيعين الملثمين والمزيفين والمقنعين والحقيقيين الذين يجوبون هذه الأرض مثل تماثيل ترابية يتناثر منها الغبار. هكذا إذاً، غرزت أمي شبح الأب في رأسي وإلى الأبد كقطرة دم تخثرت في دماغي، دون أن تتحرك. كان ما يواسيني؛ ويبدد ظلمة اليأس في هذا الأفق، هو أن نقل قبر أبي كان آخر مهمة عائلية أقوم بها. كنت مهيأ أن أقوم بأي عمل من أجل أبي الذي ذابت تجاعيد وجهه مثل عروق أشجار ميتة في هذه الأرض. أهذا هو أبي.. جسد متفسخ وتراب أحمر؟ ماذا يشعر هذا الجسد المتفسخ أمامي بعد أن دخل في عزلته؟

وهل توجد عزلة أكثر من ظلمة هذا الكيس؟

الموت الغامض الذي يجعلنا نخرج عن أطوارنا ونغرق في هذيان أبدي.

أدركت في تلك اللحظة، وأنا أرسل نظراتي إلى أبي الراقد في كيس القماش، بأن الحلّ الوحيد لإبعاد الأفكار

السوداوية هو الخروج إلى الهواء الطلق.. ولكن إلى أين في هذه المدينة المظلمة؟

عدت إلى الفندق، ومن ثم تأكدت من وجود الكيس الذي يحتوي رفات أبي في الخزانة الخشبية، وأخبرت صاحب الفندق بأن رفات أبي أمانة في رقبته، أتمنى ألا تمسه إحدى الخادمات، وقد جعلني هذا الرفات أقف جامداً أمام كل شهواتنا، وجموحنا، وعنفواننا، وضعني قبالة جسم معتم صلب، وبالتدريج، ولدت كلمة سر بيني وبين أبي، ومن خلالها بدأت أتعرف على نفسي.

وقلت:

ـ هل بإمكاني أن أمتلك جسدي كما لو كنت طفلاً يلهو؟

ولكني أدركت السعادة التي ولّدها استسلامي إلى هذا العالم، فلم يكن يهمني أن أنهي حياتي هنا، إذ لم يبق ثمة ما يغريني بالرحيل ثانية وإعادة الدورة ذاتها من الحياة الرتيبة. أصبح رفات أبي هو مصيري الذي ينتظرني. وبدلاً من اليقظة الكاملة في هذا العالم غرقت في خمول كامل، تقودني بوصلة عاطلة، ويغسل وجهي الغبار، المتصاعد من حفرة المقبرة القديمة التي التصقت بين تجاعيد وجهي. وهذا ما جعلني أحلم بالندى الليلي، الذي يزيد الوجه نضارة ويقظة. ولحسن حظي أنني بدأت أسترد تواطُئي مع هذا العالم، مع أصدقاء أبي، الذين لا زالوا يخافون الإجهار بصداقة أبي القديمة.

كنت ألوذ بهم، في الوقت الذي لا أصدق كل أقاويلهم كما أكدت لي أمي مراراً.

كان صوت أمي ينطلق دائماً ليطمئن حيرتي:

ـ أما كنت تتوق لرؤية ألعاب السيرك في بغداد النائية؟

كان صوتها يحفر في أنفاق الرغبات العميقة.

أنت يا من كنت أتصور نسيانك، تفجرين كل لحظات حياتي وأنا عاجز عن الابتعاد عنك حتى بضع خطوات، وحين أفكر في الخطيئة أو في الموت، أفكر فيك. أجل بكيت حين ذهب أصدقائي، أبناء الضباط الأثرياء، إلى بغداد النائية لرؤية ألعاب السيرك، وأنا أسمع صوتك الحزين:

ـ لا تبكِ، يا بني، سترى ألعاب السيرك حين تكبر.

ها أنذا كبرت.. وطفت مدن العالم، ومازالت عجائب مدينتي مدفونة في أعماقي كالأبراج اللمّاعة الملونة، المضاءة بمشاعل النار. ها هو السيرك، زائر غريب، يهبط مثلي على المدينة دون إنذار.

كان صوت أمي، يتحول إلى ريح تدفعني، تحرّك خطواتي المترددة، وتحثني للدخول إلى السيرك: صبية حفاة، يرتدون أثواباً مصنوعة من قماش الأكياس الرخيص؛ ينتظرون أمام شباك التذاكر، تستبد بهم رغبة الدخول دون أن يملكوا ثمن بطاقات الدخول.

وفجأة صرخ الحارس، محرّكاً عصاه ومهدداً في الهواء:

ـ يا أولاد الحرام واليتامى والعاهرات.. الدخول ليس مجاناً.

تذكرت ما قاله صاحب الفندق عن هذا السيرك الذي هبط على المدينة فجأة:

قال لي:

ـ ألا ترى بأنهم يشغلون الناس بنقل المقبرة والسيرك؟

ـ ولماذا؟

ـ أنت بعيد ولا تعرف ما تخطط له البلدية.

ـ لم أفهم معنى نقل المقبرة لكني قد أفهم أسباب إقامة هذا السيرك.

ـ لا تصدق المظاهر، إنني أتركك تكتشف الأمور بنفسك.

ثم لمحت ثلة من العميان ذاهبين إلى المقبرة.

قال لي الحارس الواقف عند بوابة السيرك:

ـ إنهم جوعى يبحثون عن موائد الطعام الذي تقيمه العوائل في الفاتحة على أرواح الموتى من شهداء الحرب.

كانت الألعاب البهلوانية الرتيبة لرجال السيرك تحثني على العودة إلى الفندق، إذ بدت أمامي مثل بركة ساكنة لاتتحرك مهما ألقيت فيها من أحجار، والجمهور يتجول في الطرقات التي رسمت بالطباشير البيض داخل جدران السيرك، بين المهرّجين والراقصات والسحرة والمشعوذين، بحثاً عن منظر للمتعة ومشهد يكسر الرتابة. وفجأة انطلق صوت يناديني.

وحين التفت، قابلت وجهاً لوجه الشيخ وزوجته اللذين سافرا معي في القطار من العاصمة إلى مدينتي قبل يومين. كانت زوجته تمرح وتضحك وتتفرج على ألعاب المهرّجين مثل طفلة.

قال لي بدهشة:

ـ قل لي يا أستاذ، هل نقلت رفات والدك إلى المقبرة الجديدة؟

وقبل أن أجيبه، بدأ يبرّر لي زيارته للسيرك:

ـ لولا إلحاح زوجتي لما أتينا إلى هنا.. أنت تعرف لا توجد هنا أية تسلية.. حتى لا توجد مقاهٍ نستريح فيها بل ينبغي علينا أن نتجول في طرقات المدينة إلى أن يدركنا الإنهاك.

بعد لحظات صمت قال:

متى تنقل الرفات؟

قلت له: غداً.

فردَّ باشمئزاز:

ـ ألم يجدوا مكاناً آخر في صحاري جلولاء لبناء صالة سينما غير المقبرة القديمة؟

ثم همس في أذني:

ـ لو كان مدير البلدية آدميا لأوقف هذه المجزرة بحق مقبرة الأجداد.

وأضاف بلوعة:

ـ أنت لا تعرف ماذا يحدث هنا.. إنهم ينقلون جزءاً من الأهالي إلى مدن أخرى في شاحنات عسكرية، فقد استولوا على أثاث منازلهم وسيبيعونها في المزاد العلني غداً، وهذا السيرك ليس إلَّا حجة.

بعد ذلك، شدَّ على يدي، وودعني قائلاً:

ـ انقل قبر أبيك قبل أن تلتهمه أسنان الجرافات.

أردت أن أقول له إنه عندي في كيس من القماش في الخزانة الخشبية في الفندق لكني سرعان ما تراجعت خشية أن أصدمه بكلامي هذا.

تأكد لي ما أخبرني به صاحب الفندق.

كان صوت عجلات الشاحنات العسكرية يخترق أسوار السيرك دون أن ينتبه أحد.

قلت في نفسي:

ـ ربما ستنتقل المدينة بأكملها إلى مكان آخر.

لم يبق لي أي ملجأ للقضاء على تلك الكوابيس إلَّا بالذهاب إلى الحانة التي كان أبي يرتادها، ويلتقي فيها أصدقاءه.

11

حين رحلت، كنت أفكر بأن هذه الحانة لم تعد ملجأً لي، فحانات العالم بأسرها أصبحت ملجئي.. وهل أصدق نفسي أدخل الآن هذه الحانة بخطوات وجلة وكأن كل معتقداتي ذهبت سدىً، هكذا اعتقدت بأن الخمرة لا تعمل إلا على تدمير جسدي المنهك، ها أنذا أعود إلى تجرّع السمّ الذي لا أعثر على دواء غيره في هذه المدينة، العرق الأبيض. الحانة، الملاذ الوحيد الذي كنا نحتمي به وقت المساء المخيف الذي ينزل على صدورنا الخاوية، والمليئة بنظرات الأصدقاء واللمسات الرقيقة للنادل الآشوري الذي كان يغرقنا بوداعته. وماذا أيضاً.. في تلك الحانة.. الطاولات والصحون ووجه مذيع التلفزيون الذي يمتنع حتى عن اصطناع ابتسامة، وهذه اللافتة النحاسية التي علّقت على البوابة، مازالت دون تغيير، رغم هطول الأمطار والعواصف؛ فيما عدا الصدأ الذي راح يأكل أطرافها.. وأطراف عيون الشيوخ السكارى الذين

يشحذون حثالات كؤوس العرق عند البوابة، هذا العرق الذي اشتهر بنخر أكبادنا.. وأكباد آبائنا وربما أكباد أجدادنا.

طاولات تنتشر في الحديقة. ووجوه صفر كأن حامليها أفرغوا كل ما في شرايينهم من دماء واستبدلوها بالخمر.

من بين الصخب وقرع الكؤوس، تناهى إلى سمعي صوت يناديني وما إن استدرت حتى رأيت مجموعة تتحلق حول طاولة مدوّرة. لم تكن وجوههم غريبة عليّ. خيّل إليّ بأنني التقيتهم في المدينة الواحد تلو الآخر.

ـ كيف اجتمعوا حول طاولة واحدة: الحوذي، صاحب الفندق، حفار القبور، كاتب النفوس وأمين المكتبة وصاحب الحانة!

لكن دهشتي سرعان ما تبددت حينما تذكرت بأنه لا توجد في مدينتي سوى حانة واحدة.. منفى الموظفين. رحبوا بي ونهضوا من مقاعدهم فاتحين أذرعهم إلى أن جلست. قدموا لي كأساً من العرق الذي نسيت رائحته منذ أعوام طويلة. كان الأفق ممتداً وأضواء حديقة الحانة تنعكس في نهر ديالى الرقراق.. ولا تظهر من الضفة الأخرى سوى الثكنات العسكرية والرياح الخفيفة تنقل أغنيات غجرية وعزف آلة الربابة إلى أذني؛ كأنها تأتي من زمن سحيق.

قال لي صاحب الفندق الذي صفف شعره بانتظام وطلاه بالدهن اللّماع:

ـ نرجو المعذرة، يا أستاذ، لو لم يقل لنا كاتب النفوس

من أنت لما عرفناك.. كنا نتصورك من الأجانب من بدلتك الأنيقة.

وانطلق الجميع بضحكات عالية.

ثم قال:

ـ أنت ضيفنا اليوم في هذه الحانة.

وبعد ذلك، نظر إليّ بحزن كما لو كان يسعى لتبرير وجوده في الحانة.

ـ عندما يهبط الظلام على المدينة لا ندري كيف تقودنا أقدامنا إلى هذا المكان. كان والدك المرحوم يأتي معنا، إننا نفتقده اليوم...

وما إن صمت للحظات حتى انطلق ثانية:

ـ تعذرنا من حالة الفندق. كل شيء فيه بحاجة إلى ترميم وتصليح: الجدران، الحمامات، الأسرّة، درجات السلم، والستائر.. بدأنا نفقد النزلاء منذ طلبت منا البلدية تقديم لائحة بأسمائهم.. وخصوصاً الغرباء... أقصد الآتين من المدن الأخرى.

ـ ألا يزعجك ضجيج رجال السيرك؟

ردّ عليه كاتب النفوس:

ـ لاشيء يتغير ما دمنا بعيدين عن العاصمة.

ثم رفع كأسه قائلاً:

ـ نخب ضيفنا!

تطايرت الكؤوس فوق أذرعهم عالياً.

وأضاف:

ـ عندما جئت لدائرة النفوس لم أعرفك.

في الحقيقة، أني كذبت عليك، فالبلدية لم تحرق سجلات النفوس القديمة رغم تحويل الأسماء إلى الذاكرة الالكترونية. ثم أخرج صورة شمسية صغيرة، بالية الأطراف، من جيب سترته وأعطاني إياها.. فأشرق وجه أبي أول مرّة.. رمقني بنظرة حادة من عينيه البارزتين. خفضت رأسي ووضعتها في ثنايا محفظتي خشية أن يراها الشخصان اللذان جاءا لتفتيشي في الفندق بالأمس.

تدخّل أمين المكتبة وناولني رزمة من الكتب، قائلاً:

ـ في هذه الكتب تجد فصولاً تتحدث عن أبيك ورحلاته!

ثم أضاف بعد أن أزاح نظّارتيه عن عينيه:

ـ لم تصدق ما قلته لك أثناء زيارتك للمكتبة.

بعدها أشعل غليونه، وقال:

ـ منذ يوم وفاته ومدينتنا تتخبط في الحروب.. والأمراض كأن موته أصبح حداً فاصلاً بين تاريخين، قبل موته وبعد موته.

وبعد لحظات صمت قال:

ـ ارتعاشة قلبه كانت تأتي من نسائه: زليخة... وسلطانة.. وأمك!

أجابه صاحب الفندق:

ـ الزواج قرعة بين الملائكة والشياطين.

قال أمين المكتبة:

ـ في حياة كل رجل امرأة واحدة أما الأخريات فهنّ نزوات عابرة.. مع أمك كان يشعر بالطمأنينة.

أضاف الحوذي:

ـ نساء من نار ونساء من رماد.

ثم قال أمين المكتبة:

ـ مع أمك كان يحلم بأن يرى ابنه.. مات ولم يرَك.

قال صاحب الفندق:

ـ أمك المسكينة عاشت ممزقة بين مشاجرات جدك وجدتك وجنون خالك.

أجابه حفار القبور:

ـ الدراويش.. كانوا يضربونه بالسياط ليخرجوا الشياطين من رأسه.

ثم تدخّل كاتب النفوس منزعجاً:

ـ يا ناس اتركونا من الموتى.. فكروا في مصيرنا قليلاً.

قال حفار القبور:

ـ مصيرنا مثل مصائرهم.

ثم أضاف بعد أن خيّم الصمت على الطاولة:

ـ لو كان مدير البلدية من أبناء المدينة لحافظ على مقبرتها... وكرامتها.

أجابه أمين المكتبة:

ـ إنهم يعيّنون مدير البلدية من الغرباء حتى يكشّر عن أسنانه وقت الحاجة.

أجابهم الحوذي:

ـ تصوروا، يا أصدقاء، هل نستطيع أن نعيش بدون هذه الخمر؟

رفعوا كؤوسهم وانطلقوا في قهقهات مدوية.. أبهرتني أحاديثهم التي طوت في لحظات قليلة نبض حياتي.. بل وأسرارها لكنهم سرعان ما لاحظوا حزني، وهم يفرغون كؤوس العرق الأبيض في بطونهم الخاوية.

نهض حفار القبور عن طاولتنا فجأة، انتصب بقامته، وصرخ في وجوهنا:

ـ تخطيط القلب.. خربشات آلة سخيفة تقول سأموت بعد يومين.

سنرى مَنْ يموت: الآلة أم أنا؟

ظلّ واقفاً كأي ممثل مسرحي إلى أن نهض إليه الحوذي قائلاً:

ـ لكنك ستموت قبل أن يموت حصاناي الهرمان.

ثم وقف إلى جانبهما كاتب النفوس معلقاً:

ـ أنا الذي سأزودك بشهادة الوفاة وإذا شئت الآن.

نهض صاحب الفندق غاضباً، وقال:

ـ كفاكم تصرخون بالموت.

كنت أنتظر أن يعودوا للجلوس ثانية إلى طاولتنا لكنهم

انتصبوا واقفين كأنهم ينتظرون أدوارهم على خشبة المسرح، خرج السكارى من صالتهم إلى فناء الحديقة وجلسوا على الكراسي مثل جمهور فضولي.

نهض أمين المكتبة، استدار إلى الجمهور وهو يلوّح بيده:

ـ وعاد الجنود ليضعوا نهاية لآلامنا التي تبتدئ دائماً مع الأسئلة.

حفار القبور:

كان من الممكن أن ننتهي جميعاً في فجوة داخل الأرض لكن المصادفة وحدها أعطتنا فرصة رؤية الموت بعيداً عن أصوات القنابل والصواريخ.

كاتب النفوس:

يجب ألّا نصغي بعد اليوم لصانعي الأجوبة الجاهزة.

صاحب الفندق:

هناك كان يقال لنا إما أن يكون المرء زلزالاً أو يموت لكن الأفضل دائماً أن يموت.

أمين المكتبة:

الرؤوس التي ذهبت إلى الحرب كانت مليئة بالصخب.. ومن أجل أن نصل إلى الصمت يجب أن نحطّم الصخب في رؤوسنا.

حفار القبور:

إذن فلتكن الحرب هي الضجيج الأحمر.

في لحظة من اللحظات، خيّل إليّ بأن أصدقائي الجدد،

المخمورين حتى الشمالة، قد خرجوا عن طورهم.. أزاحوا الأقنعة عن وجوههم وربما ارتدوها.

كانت أضواء الأعمدة المتناثرة في الحانة ترشق وجوه الممثلين الذين اعتلوا دكة المسرح بضربة جنونية. كنت أتمتم بكلماتهم وبعباراتهم كأننا نتبادلها في سراديب الكواليس... كأن دواخلنا، فاضت مرّة واحدة؛ وألقت بهذه الكلمات في وجه الجمهور الخامل الكسول الذي يصغي مبهوراً وهم يواصلون هذيانهم.

أمين المكتبة:

يخيّل إلينا بأننا لم نرث من هذا التاريخ سوى حرب أبدية.

كاتب النفوس:

ثمة ثقب يظهر من السماء فجأة ويتدلى منه الكلام.

الحوذي:

ومن يستطيع أن يعترض؟

صاحب الفندق:

نتساءل عما إذا كان الجنود كائنات بشرية.

حفار القبور:

أجل إنهم كائنات بشرية صنعت هكذا لتموت سريعاً.

أمين المكتبة:

هل كان بإمكانهم أن يصنعوا المعجزة.

كاتب النفوس:

وثمة مَنْ يطلّ علينا من أعلى البرج، فيرانا كلّنا أبطالاً وكلنا نشبه بعضنا بعضاً.

وفجأة خرج الممثلون من بوابة الحانة، يهيمون في طرقات المدينة وشوارعها؛ ويطلقون كلماتهم في الهواء الطلق حيث يتلقفها أبناء المدينة، كالحالمين، السائرين في نومهم، مثل قافلة تائهة وسط صحراء يحثون الخطى في دروب مجهولة، يطرقون الأبواب الموصدة، يقلبون براميل القمامة، يهشمون المصابيح المعلقة على الأعمدة؛ ويوقظون النيام.

كانوا يتلمسون طريق الخروج من جلودهم عبر الكلمات ولا شيء قادر على إيقافهم عن هذا الهذيان الليلي الذي أصابني بالدهشة.

صاحب الحانة:

إنني أرى الأرواح الشريرة أخذت شكل الزجاج..

كاتب النفوس:

أرواح من الزجاج.

صاحب الحانة:

لقد خرج الذهب من باطن الأرض ليتكدس بهذه الطريقة الشيطانية.

حفار القبور:

لقد أعيد تشكيل رؤوسنا لكي تنحني بخشوع أمام المقابر.

الحوذي:

هكذا وضعونا تحت الرمال.. قيل لهم إذا لم يغطونا بالرمال فإنا سنذبحهم بالسيوف.

حفار القبور:

ثم راحوا يوزعون علينا صورة القنبلة وهي ملفوفة بورق السّلُوفان الملون الشفاف...

حفار القبور:

قالوا لنا إذا غزوتم هذه الأرض فسوف تجدوا بحيرة من الذهب... إلحقوا بها قبل أن تجفّ لكننا سوف نظل نحفر القبور كي لا يبقى هناك ضوء للقمر.

أمين المكتبة:

اللعنة.. ها نحن لا نفعل شيئا سوى تنظيف النفايات النووية التي ألقيت علينا من السماء.. فكيف نفكر في بحيرة الذهب؟

أمين المكتبة:

وما هي الإمبراطورية الحديثة؟

حفار القبور:

عندما يكون البطن مهدداً يكون كل الكائن البشري مهدداً.

كاتب النفوس:

لكن الوصول إلى بطوننا يبدو وكأنه أبعد من الوصول إلى المريخ.

أمين المكتبة:

لسنا أقوياء، وهناك من يستعمل الطريقة نفسها التي تستعملها الكلاب للحصول على قوتها..

صاحب الفندق:

الآلاف يتكدسون ويتزايدون يوماً بعد يوم كما لو أنهم يخرجون من الأنابيب.

كاتب النفوس:

هل تقصد أطفال الأنابيب؟

أمين المكتبة:

ـ هل تتذكرون قبل أن تنطلق الرصاصة الأولى، سارعت شركات حفظ النسل بملء القناني بحيامن الجنود..؟

مالك الفندق:

ويتناسل الجنود كما يشاؤون في البحر، في الجو.. في البر..

ويتناسلون حتى في المركبات الفضائية..

حفار القبور:

وماذا عن جنودنا الذين رحلوا دون أن يذوقوا طعم المرأة؟

كاتب النفوس:

أليست فضيحة أن نكون على حواف الصحراء دون خوذات على رؤوسنا أو طائرات نعلّق بها أهداب عيوننا؟

حفار القبور:

الطائرات الورقية تأخذ كل أحلام الطفولة.

أمين المكتبة:

حين تفتح الأفواه، تتقيأ الكلمات، تزكم الأنوف تماماً مثل رائحة فاسدة لعلبة طعام مفتوحة متروكة لفترة من الزمن.

الحوذي:

يبدو أن شيئاً يشبه الطاعون أو الكوليرا تسلّل إلى أرواحنا.. ألا تعلمون بأن الروح تتناقص كشمعة حتى تذوب نهائياً.

أمين المكتبة:

وضعونا أمام مستنقع: خرائط، جنرالات، مجندات، مركبات فضائية، موسيقى صاخبة، بيرة بدون كحول، هامبرغر ومأكولات أخرى.. كانت رصاصة واحدة تكفي لإشعال صدورنا...

كاتب النفوس:

ولكن لماذا تجعلوننا، أنتم خبراء الحروب، نشعر بأن الحلّ يأتي من كوكب آخر؟

أمين المكتبة:

ربما تسألوننا كيف نقرأ الوقت؟ فنقول لكم دون تردد:

الوقت نقرأه في جثثنا..

كاتب النفوس:

الجثث وحدها جعلتنا نبحث عن تابوت فلسفي لعالمنا.

الحوذي:

دعنا من هذا الهراء.. أنت لا تعرف سوى قصائد عن هذا الموت؟

أمين المكتبة:

الذي يريد أن يكتب يجب أن يهرب أولاً.. وجلدي يشبه الورق ولا خيار أمامي سوى أن أزرعه بالمسامير..

الحوذي:

لهذا فإنني أحاول أن أحمل جلدي معي.

كاتب النفوس:

أفضل قصيدة يمكن أن نكتبها هنا هي.. قطعة خبز في الخنادق المظلمة.

الحوذي:

لاتنخدع، أيها الجندي، بما يلقون عليك من ألقاب وأوسمة ونياشين: فالموتى يأكلون فضلات الطعام ونفايات الصحون.

كاتب النفوس:

أنظر إلى النسوة كيف يرتدين العباءات ليصنعن لك منها أكفاناً وقت الحاجة.

أمين المكتبة:

من كان يفكر بأن قبر الجندي يصبح تلالاً من الرمال.. التي كان يحلم بفرشها مثل سجادة وقت الصلاة؟

حفار القبور:

لكن الفاتحين الكبار لم يتمكنوا من تحقيق رغباتهم إلّا بالهروب إلى المقابر!

أمين المكتبة:

ثمة شيء يشبه الوحش الجميل يتشكل في أعماقنا، يَخِز ضمائرنا، ليل نهار، بإبر ساخنة؛ ويدفعنا للتساؤل: أين يكمن الخلل في التاريخ أم في الكبرياء؟!

كاد رأسي ينفجر من هذه الأحاديث التي بدت لي خارجة عن الزمن، زمن مدينة قيِّض لها أن تعيش بعد الحرب، فقد تغيرت معالمها، حتى كلماتهم أصابتها لوثة عقلية لصقت بها كما يلتصق الجلد باللحم.

ثم تساءلت:

هل يعقل أنهم ما زالوا قادرين على الحديث بشكل طبيعي في هذه المدينة؟

من أين كان كاتب النفوس، صاحب الفندق، الحوذي، حفار القبور، أمين المكتبة وصاحب الحانة يأتون بتلك الكلمات كأن أحداً صب في رؤوسهم زيت الفلسفة ليشعل به المدينة. وبعد أن استمعت إلى هؤلاء السكارى، أدركت بأني مقبل على رؤية معجزة لأن المعجزات كلها ولدت من الأفواه أولاً. على الأقل تعلمت أخيراً بأن أصدقاء أبي الفانين كانوا يتوجون الكلام بالزنابق، ويغطون الآثام بتأنيب الضمير. لم

أتمكن أبدا، بكل ما أوتيت من قوة الذاكرة أن أستعيد خيط كلامهم الذي دخل إلى روحي كالنصل واستقرت ثمالة تلك الأحاديث في قعر تلك الكأس الراقدة في أعماقي، التي لم يكن يتردد الشعراء في تسميتها كأس الآلام. بين ساعة وأخرى، تحوَّل أولئك البشر من أصدقاء أبي إلى العصب الذي أتحرك من خلاله في هذه المدينة، تلك اللوثة التي زاد سعيرها، وذلك الخيط الواهي الذي يربطني بأمي، وزليخة وسلطانه والقابلة التي بقيت في ذاكرتها، ولكني كنت أكثر تعلقاً برفات أبي الذي قد ينهض الآن في هذه الحانة وبوجود أصدقائه ليدلني على طريق الخلاص. كانوا يحملون بأيديهم مفاتيح المدينة وأسرارها، و أسرار أبي، وعالمه، وكل واحد منهم يتحدث لي عنه، ليزيد في هذا الغموض الذي اسمه أبي، بل كانوا يبسطون على طاولة الخمر كل صفحات التاريخ، ويمزقوها في آن واحد. وتذكرت ما قالته لي أمي عن أصدقاء أبي الذين كانوا يتحدثون عنه دون الإفصاح عن ذلك، وكأنهم يتسترون على أسراره. ويتلمسون بدلتي بأناملهم، ونظرات الإعجاب تنطلق نحوي، كأنهم يتباركون بالنطفة التي أطلقها أبي ذات يوم في أحشاء أمي، وكنت أتساءل: هل أن مصدر الإعجاب هذا، يأتي مني أم من أبي؟

أخذني كاتب النفوس جانباً وقال لي بصوت خفيض وهو يتلفت يسرة ويمنةً:

ـ إصغِ إليّ جيداً.. إننا لا نستطيع أن نأتي معك لدفن

رفات والدك من جديد لأننا نخاف أن يكتشفنا الآخرون، خذ معك حفار القبور فقط لأنه لا يقوم إلا بممارسة مهنته أما نحن. . . .

ـ ومن هم الآخرون؟

ـ أنت تعرفهم جيداً، إنها العيون التي تراقبنا منذ قدومك إلى المدينة وجلوسك إلى طاولتنا. تصور إننا نشرب الخمر يومياً حتى نبين لهم بأننا لم نعد نعبأ بشيء يخص المدينة ولا حياتها ولا مصيرها، كلما زدنا وداعة أصبحوا أكثر بطشاً، لا يهمهم أن تتحول المدينة إلى خرائب وزرائب بل كل ما يهمهم أن يحكموا السيطرة عليها بقبضة من حديد.

ثم قلت له، وهل هذا رأي الآخرين؟

ـ أجل. كل الطرق التي كنا نسلكها انغلقت، وخطواتنا الواهية ليس فيها إلا الوقع البطيء، ترانا نمشي ونحن في هذا المكان كأننا لم نبرحه.

ثم أضاف بخوف:

ـ هل تريد النصيحة؟

ـ أنا لا أثق بغيركم في المدينة؟

ـ ادفن رفات أبيك وعد من حيث أتيت في الحال.

وكان الأجدى بك أن تحتفظ بذاكرة أبيك هناك ولم تأت إلى هنا لأنك لن ترى هنا إلا الظلال والعتمة والقهر.

قل لي من أنت؟

أنت وحيد الآن رغم هذه النجوم.

الليل هو هذا الليل الذي نعرفه منذ الأزل. الليل لا ينتهي، وأنت ها أنت انفصلت عن ذاتك. أعرف جيداً من الذي ورطك وأتى بك إلى هذا المستنقع، إنها أمك، التي تعرف كل شيء عن المدينة، ولكنها لا تتحدث إلا بالرموز، لكننا لم نعد نصبر حتى نتكلم بالرموز.

هل تريد أن تلتقي بأمين المكتبة. انتظر قليلا سوف يأتي للحديث معك.

خرج أمين المكتبة من صمته قائلاً:

ـ لقد قتلوا ذوي العقول الكبيرة لكي ينفردوا بهذه الحياة، ويحتكروها لأنفسهم، أليس كذلك؟ ألا يكفي أن نعيش على الانتظار؟ هكذا ثلاثون عاما ننتظر أن يحصل شيء ما؟ ولكن لا شيء يحدث. كم من الوقت يمكن أن ننتظر؟ لا أدري. ولا أحد يدري. كم من الوقت سيحافظون على هذه الحالة الساكنة التي حوّلتنا إلى مجرد تماثيل رخامية قبيحة وهرمة؟ إننا أصبحنا مثل حيوانات لا تعرف سوى الأكل والبضائع الرخيصة.

انظر إلى هذا الذباب الذي يسخر منا ويقف على وجوهنا متى يشاء، انظر إلى هذا الشحاذ النائم الذي لا يستطيع حتى طرد الذباب عن وجهه. هكذا إذن وصلنا إلى حالة عدم الجدوى. هل نحن عبارة عن حشرات تقتات على دم الآخرين؟

أنظر إلى منازلنا، كل شيء يتهدم فيها ونحن غير قادرين على ترميمها أو تبديل أحجارها الساقطة.

أعتقد أنك تحدثت مع كاتب النفوس، ما الذي تعتقده يفعل؟ هل يحصي النفوس حقاً، الولادات والوفيات؟

إنه يحتفل بالزيجات والطلاقات على حد سواء، سيّان عنده، بل أصبح طلاق الرجل والمرأة لا يعني شيئاً.

وماذا تريد، حفار القبور، باستطاعته أن يتكلم أكثر مني، لأني أتحدث لك مما في بطون الكتب لكنه لايعبأ بالكتب بل هو يؤلف كتباً.

حفار القبور:

ـ إمبراطورية الموتى كتاب واسع لا ينتهي، وحتى لو انتهى، يبدأ كتاب المحتضرين، وإني لأتساءل أين تذهب خمرة الأحزان المكدسة في أعماقنا؟

كان والدك دليلنا في هذه المدينة لكنه تركنا ورحل، بدأ حياته من الغرفة المظلمة وانتهى فيها، كنا نتصور بأن الكلمات في مأمن لكننا كنا مخطئين. كان يجمعنا في مكان بعيداً عن هذه الحانة الضاجة، المختنقة بدخان السجائر، ودسائس المخبرين، لكن رحيله شتتنا وبعثر قوانا.

صاحب الفندق:

ـ في الحقيقة، إنه نظم حياتنا، أتى من العاصمة، وعاش مع الإنكليز، ورافق شخصيات كبيرة، فعلّمنا بأن كل شيء راحل إلا ساعات الملذات الصغيرة لكننا لم نكن نعرف كيف

نعيش في هذه المدينة الصغيرة ولا كيف نغري النساء، ولا كيف نلبس بدلاتنا بل كنا نشرب الخمر كالدواب وبعد رحيله عدنا إلى حالتنا السابقة وهكذا. لكننا تعلمنا منه كيف نتذوق المشروب والطعام. كان يردد ما دامت الأيام تنقضي، وتجري وتموت، مثل تساقط النجوم فلماذا لا نملأ حياتنا بالمباهج؟ أنظر بإمكاني أن أعرض عليك مئات الأشجار التي زرعها أبوك في هذا الشارع أو ذاك. قال لنا: الأشجار ستنادينا ذات يوم بأسمائنا، فدُهشنا لهذا الكلام، وكم من مرة حذرتنا الأشجار وهي تهز أغصانها ملوحة ومنذرة ومحدثة جلبة من الأخطار التي تحدق بنا؟

والآن أين يمكن أن نجد السكينة بعد رحيل والدك؟

وها نحن لا نستطيع حتى مشاركتك بتشييع رفاته ثانية، ستذهب وتدفن رفاته في المقبرة الجديدة وحيداً، وكم من الناس غير قادرين على دفن رفات ذويهم لأنهم بحاجة إلى المال، حتى اضطروا إلى التخلي عن شعائرهم وتحولوا إلى دواب صالحة للعمل من أجل لقمة العيش فقط. هل يصح أن أستعير كلمة قالها أحد الأصدقاء: إنه الغثيان الأسود، لماذا نقلوا المقبرة، وهدموا أسوارها، أنت ربما، وبسبب غربتك الطويلة، لا تعرف السبب؟

يبدو أنك آمنت بأنهم حوَّلوا المقبرة لأنهم يريدون بناء صالة سينما على أنقاضها، أنت واهم إذن، المساحات شاسعة، كل ما في الأمر، أنهم أرادوا أن يتخلصوا من قبور

كثيرة أصبحت مزاراً يقصده الحجاج من أقصى الأرض وقبر والدك من بينهم. لماذا يجرجرون الناس إلى الوحل المصنوع من دماء الشهداء، إننا نقف أمام جثث لم تجف ديدانها بعد، حتى المجانين راحوا يخبثون جنونهم في هذا الوحل، في هذا الموت البعيد الذي يتربص بنا جميعاً، من يتربص بمن، هذا هو السؤال.

تركت طوابير السكارى، منهكة القوى عند بوابة الفندق، لحق بي أمين المكتبة، وقال لي فجأة:

ـ كنت أتمنى أن أراك وحدك.

ثم أمسكني من يدي مضيفاً بصوت مرتعش:

ـ مات أبوك متألماً، مريضاً، أصابه مرض من كثرة معاشرة النساء.

تعثرت خطاي على سلالم الفندق الحجرية التي لاحت لي كبرج شاهق أعجز عن تسلقه بقدمي المخدرتين إذ لم تكن لديّ رغبة في الصعود إلى غرفتي. فأطلقت العنان لقدميّ في دروب المدينة الضيقة. وفي تجوالي التائه، كنت أتوقف عند أعمدة الكهرباء لأنظر إلى عقارب الساعة.

ـ كم الساعة الآن؟ الزمن يأكل نفسه في هذه المدينة.

ـ هل كانت أمي أو زليخة أو سلطانة على علم بمرض أبي؟

تصاعدت الخمزة في رأسي كما يتصاعد زبد البحر وقت الهيجان.

وقلت مردداً:

اللعنة على هذا المرض الخبيث الذي أكل خلايا أبي وجعل منه فريسة سهلة لديدان حقيرة.

12

لا أعتقد أن ثمة امرأة تعرف أسرار أبي مثل سلطانة!

منذ أن رأيتها، أطلقت في جسدي تلك الحمى القديمة، بنظراتها الحالمة، وجسدها البضّ، ونهديها الناعمين وساقيها الممتلئتين، شهوة محرّمة تزحف إلى جسدي مثل دبيب النمل، هاربة إلى سنوات المراهقة، وصلت إلى نضجها، هي شهوتان تصارعتا، وامتزجتا: شهوة المراهقة ونزق الرجولة. كم من الرغبات ولدت هنا، في الغرف المهجورة، على الأسرة الباردة، عند الفجر أو عند منتصف الليل وماتت وئيدة؟ غرست هذه المدينة في أحشائي خنجر الشرف ولوّحت لي بسيف العفّة كلما عبرت رأسي نزوة ما، وكم بدد هذا السيف عمري وعمر الآخرين.. وعمر زليخة وسلطانة وأمي!

كان صوت بعيد يتردد:

ـ وماذا تنتظر يا غبي.. سلطانة تحبك؟

هذا هراء، سلطانة زوجة أبي.

أجل إنها زوجة أبي.

لكن بريق عينيها يجعل رأسي يفرغ من الدم.

كيف يمكن لي أن أفكر بها بطريقة شبقية، رديئة، غير مشرّفة.

هل يسلك رجل مثلي، تسلح بكل آداب الأرض، مثل هذا السلوك ويقع فريسة سائغة لشهواته.. الدنيئة.

ماذا لو اكتشف الآخرون رغبتي المحرّمة هذه؟

وتراءت صورة أمي وهي تحدق إلى وجهي:

ـ كيف تضاجع زوجة أبيك.. أنت الذي تبشر بالأفكار العظيمة؟

صرخت بوجهها:

ـ إني بريء.. هي التي أغوتني.

ـ ألم أحذرك بعدم اللقاء بها؟

شياطين تخرج من جدران الفندق.. وتغزو رأسي المظلم وتحثني على الذهاب إلى أحضان سلطانة، والسرير الذي سأنام عليه هو سرير أبي.

وما الفرق بيني وبين أبي؟

نطفة دم واحدة. أجل. يا رأسي المعبأ بتعاويذ الخمرة. أعرف أنه ليل تكدس فيه كل الزمن ليشق طريقه نحو الخطيئة، وهل ثمة زهو رجالي مثل أن تضاجع المرأة التي شغلت سنوات مراهقتك، تمرغها على السرير، وتجعلها تصرخ،

وتتلذذ وتتوسل، تتلوى على السرير كأنها تغسل ذنوبها بتلك الشراشف البيض الناصعة التي وضعتها للاحتفال بتلك الليلة.

لا أدري كيف شقت هذه الأفكار طريقها إلى رأسي في تلك اللحظة.

كانت الخطى على الطرقات الترابية هادئة وواثقة بأني أسير في موكب أبيض، في الضياء المبهر من مصابيح أعمدة الكهرباء التي تتباعد، وتنتشر هنا وهناك، ولكني سرعان ما اكتشفت بأن ضوء المصابيح الخافت لا يصدر مثل هذا الضوء الأبيض الناصع والمشرق، شعرت في لحظة، وأنا أسير إلى منزل سلطانه، بأني أخترق الزمن، زمن المدينة، وزمن هذه الرغبة القديمة التي تأججت في مدينة قاحلة، مسقط رأسي، وفي الحقيقة، أنني أطأ بقدميّ في عالم بلا ضجيج، كيف يحصل هذا؟ وأين ذهب ضجيج المقبرة، وضجيج النهار.

ياإلهي، من أين يسيل كل هذا الصمت؟

هل أتجرأ وأدق على بوابة منزلها، وأزيح شالها الأسود عن وجهها، وألمس حمرة شفتيها الناريتين، امرأة نزقة رفضت كثيراً من الرجال ولم تعبأ بهم، حاصرت أنوثتها بنفسها، ودفنت مفاتنها في شكل امرأة أرملة، منذ مات أبي، هجرت الحياة، وكادت تضع الحجاب، ولم تكن تعبأ بمثل هذه المدينة الصغيرة، الضائعة بين بنادق الأكراد ومعسكرات الجنود وخيول القبائل، لكن منزلها كان هادئاً، في ذلك الشتاء

البعيد، في مدينة أبي، التي منحها حياته، وهي لم تمنحه حتى طمأنينة القبر.

كنت أقطع الطريق الترابي المؤدي إلى منزلها، والسماء تكاد تسقط على رأسي، لا شيء عاد قابلاً للرؤية، بين منزل سلطانه، ومبنى الفندق، والمقبرة، ورفات أبي، وأنفاس أمي.

ـ هل كان عليَّ أن أكذب على الجميع من أجل متعة هذه الليلة؟

وفي كل خطوة أخطوها، أتحسس تلك الشعلة المحمومة التي عاشها أبي بنفسه تجاه سلطانه، لكني أدركت بأني تجاوزت نقطة الرجوع، في هذا الوقت المتأخر، كأنني أفلت من عزلة المدينة.

كيف أقترف عملاً كهذا؟

أعرف بأنها تنتظرني وإلّا لما تجرأت وغادرت فندقي، وتوجهت إلى منزلها، لكني شعرت في قرارة نفسي بأني لا أخوض معركة عادلة، بل أطلق العنان لرغباتي وسط عالم الضعفاء. كان عليَّ أن أتصرف بما يليق بالسيد المهذب، والكل يعرف تهذيبي، ويحترمه. أين أضع ثقتي، هل أضعها في الفضيلة التي أصبحت الآن في عهدة الآلهة المسؤولة عنها، لكن الخجل ينتابني، وأنا متحصن وراء الاسم الذي اقترن به اسم أبي، وفروسية أجدادي، ومشعلهم الذي حملوه طيلة قرون، وقيم أخرى أورثني إياها أبي، تتعرض للتشوه. لم أجرب فضيلتي بل كنت أمتحن نفسي على ممارستها. ولكن

كلما لاحت لي بقع الضوء الهاربة في الممرات والأزقة التي أسلكها، تجتاحني رعشة الخجل التي كنت أتجنبها طوال حياتي.

تذكرت أقوال أمي:

إياك أن تلتقي بزليخة أو بسلطانه.

ثم كررت:

ـ وعلى الخصوص سلطانه، قبلتني من فوق الوشاح، ورائحتها كالمعتاد، يخالطها ذلك العطر الذي لم يتغير منذ طفولتي، العنبر.

وهي تتمتم:

أنت الولد الأكبر، الرجل، تحمَّل مسؤوليتك، وانقل رفات أبيك إلى المقبرة الجديدة بكل افتخار.

كان وشاحها الأسود يخفي شيئاً، مثل تلك البرقية التي جاءتْ عبر الأسلاك النحاسية عابرة مسافة خمسة آلاف كيلومتر إلى باريس، حاملة شكل الفراشة المحنطة.

في هذه المدينة، لم يعد الناس يعبأون برفات الموتى، ولا أقول الموت لأنه أصبح الأليف الدائم. ما من عائلة إلا وكتب تاريخها على شاهدة القبر بعبارات تذكارية موجزة إلى درجة لا تتسع معها لاسم الميت. خشيت أمي من مرافقتي لدفن رفات أبي، لكنها ودعتني، وكانت منهكة إلى درجة لا تجد متسعاً للندب أو الحزن. كانت هذه الأفكار تحيط بي، وأنا أسلك طريقي إلى منزل سلطانه. لكني فكرت ما الذي

يجعل سلطانه تدعوني عندها هذه الليلة، ونعرف نحن الاثنين ما سيحصل. أليس من السخف أن أعتقد أن الشيطان يدفعها؟

هل تريد الانتقام من أبي أم من أمي أم مني يا ترى؟

ألست ذاهباً بنفسي لقتل أبي مرّة أخرى؟

أقتله ألف مرة، أكثر مما فعلت البلدية في تهديم قبره الهاجع في المقبرة القديمة منذ سنوات.

هكذا عليَّ أن أتستر بالظلام وأدخل إلى منزل سلطانه وأخرج منه بالطريقة ذاتها، مثل ثعلب بارع. كان من المحتمل أن أذهب في الاتجاه الخاطئ، إلى المقبرة. قطبان يتنازعانني، روح أبي وإغراء زوجته، خطواتي مذعورة، وغبار الطريق يتطاير خلفي، ضالاً كاذباً، أبحث عن كل مبررات ذهابي إلى منزلها في هذه الليلة التي كان يجب أن أكون فيها نائماً على سريري في الفندق، بإمكاني أن أتخلى عن هذه الزيارة الليلية الملعونة، المشحونة بكل الاحتمالات.

هل يتوجب علي أن أذهب إلى نهاية الشوط وأصبح جبانا؟

كانت سلطانه ترتدي ثوباً من الكتان الأبيض، تحركه الرياح، يلتصق ثوبها بجسدها، راسما بطنها المندلق قليلاً إلى الأمام. ومعصم يدها اليسرى مزين بسوار من الفضة. ونهداها الكبيران يؤكدان لي نوعاً من الدعوة السرية التي طالما انتظرتها، شيء إلهي في الجمال الخالي، لا نتبادل فيه سوى

حضور جسدينا واستسلام أحدنا للآخر، تعصف بي إرادة لا تكبح في دفء الخليط الأمومي والأنثوي والشبقي والمحرم.

وتساءلت في سري:

هل إنني مقدم على اقتراف الخطيئة الأصلية؟

وأصابني الخجل أن يصادفني أحد في الطريق في تلك الليلة، ويراني متلبساً بشبقي، هذا الشبق الذي ظل مختفياً إزاءها منذ طفولتي، هل أنا مريض أم ماذا في هذه الليلة بالذات؟

وقلت في هذيان لا نهاية له:

ـ هل يحق لي أن أسبب لأمي كل هذه الآلام؟

في الطريق إلى بيت سلطانه، كنت أذهب إلى مكان ناء وغامض لا حدود له، إلى بلاد مترامية الأطراف، ومقفرة، بلاد رمادية اللون لا وجود لها في أي مكان، هائم على وجهي كأنني حيوان مطارد.

ـ هل يمكن أن أتحول إلى مسخ من مسوخ الماضي أو شبح من الأشباح التي صنعتها مخيلتي؟

أحاول جاهداً أن أدفع هذه المسوخ والأشباح عن رأسي، وألفظها إلى الخارج مثل قيء حامض يصيب جسدي بالتسمم إذا ظل محبوساً فيه. وأتعثر في أن أعبر عن خلجات نفسي المحاطة بالأسوار الحجرية الشاهقة. لم أكن أقوى على الاختيار منذ طفولتي لأنني كنت محاطاً بالنساء، اكتشفت الأنوثة في أمي، وسلطانه، وقلما اكتشفتها في زليخة، ومنذ

ذلك الحين دخلت في دائرة كل ما هو محرم، إغواء الزنا بالمحارم، هكذا صار الذنب حافزاً إلى الرغبة ورادعا لها.

ألهذا السبب لم أكن قادراً على الغرام بالآخر الغريب، المرأة الغريبة التي عرفتها ذات يوم؟

لماذا لا أعترف بالمرأة التي أحببتها وأنكر ارتباطي بها؟

بين النبذ والتقديس، ظهرت سلطانه، على الرغم من أن أمي تصفها بالبغي، وأنا أحلم بالذهاب إلى مخدعها الدافئ. لم تعد لي رجولة تذكر، نساء المدينة ينظرن إلي من دون شهوة، فالبائسات لا يعرفن الشهوة، لا توجد امرأة هنا تطلب مني أن ألبّي رغبتها بل هي تريدني أن ألبي حاجتها المادية.

ـ هل الحرب هي التي أقصت كل هذه الرغبات مرة واحدة؟

هل أصابني مس معين؟

ماذا أرى أمامي؟

مدينة تشجع على الموت وتدين الحب وكل شيء يتوارى خلف أقنعة الأخلاق التي لم تعد هي الأخرى موجودة.

وهنا تساءلت:

ـ هل أن عزلتي هنا تقودني إلى الخطيئة الأصلية؟

ـ هل ذهابي إلى حضن سلطانه هو خلاصي؟

وسرعان ما فكرت بأن هذه الأفكار تنتمي إلى ماض غابر، في مملكة عاشت قبل التاريخ، هنا في هذه الأرض بالذات، أي مدينتي، التي أحاول فيها تحطيم سجن الزمن.

مدينة تتكون من المنفيين، لا أعراق، ولا أنساب، ولا قوميات، لذا فهم لا يعبأون بالزمن. والمقبرة يمكن أن تنتقل اليوم أو غداً، وهكذا لم أكن أعبأ أن أدفن رفات أبي اليوم أم غداً، مادامت جثته تحولت إلى تراب أحمر، يتخلله النمل الأسود، الهارب من الكيس في محاولة للتسلق على وجوه أحياء. ومن أجل أن تهدأ الأمور تقوم البلدية بنقل جزء من السكان على ظهور الشاحنات العسكرية إلى الجنوب، كما لو أنها تدعوهم إلى وليمة طوطمية، بإدغامهم مع إله المنفى، ذلك الذي يتصدى لكل من يحاول أن يقيم في هذه المدينة، ويزعزع جذوره ويخلخلها مثل سن مسوس في فك. ويبدو أن مدينتي أصبحت نوعاً من سرة الكون، ليست المدينة فحسب بل المقبرة بأكملها، وأخذ الناس يتقاطرون عليها كما لو كانوا يقبلون على فردوس وجدوه في خرائط مجهولة وكأن أهالي مدينتي يهيمون على وجوههم بحثاً عن المقام المقدس.

ـ أليس المقام المقدس هذه القبة التي يرفرف عليها البيرق الأخضر وسط المقبرة؟

لكنهم لم يعودوا يطوفون حوله، لماذا؟

هل انتفضوا على هذا المقام وأرادوا أن يحطموا ماضيهم الأسطوري؟

هل كان أهالي مدينتي يسعون إلى عبادات سرية لا أعرفها ظهرت في حياتهم في وقت غيابي؟ قلعة آشور ليست بعيدة عن المدينة، إنها تسهر على سلامة الأساطير فيها. هؤلاء الناس

اجتثوا من أماكن ثم أعيدوا إليها بشكل مصطنع، وما يجمعهم هو التوق إلى رموز افتقدوها هنا، حنين الأمكنة. كانوا يتعوذون شراً عندما يجتازون عتبات أبواب بيوتهم وهم يخرجون بحثاً عن ذلك السر في الأدغال والصحارى و الدهاليز والسراديب والأقبية والمتاهات. هكذا فقد الزمن التعاقب والانتقال وأصبح عبارة عن تدفق دائم لحاضر ثابت تلتقي فيه الأزمنة، الحرب تلو الحرب الأخرى، ساعة وتقويم، وحيز الزمن اختصر إلى المدة المقررة لنقل المقبرة، ونقل رفات جميع الموتى، أو ممن لهم أهل ومال، وإلّا اختفت القبور، في معركة لا نهاية لها، هكذا قصر الزمن وتحول إلى نفحة هواء، ونذير شؤم، يتناسل ويعيد لنا الحروب، وتحول نقل المقابر إلى عقاب أزلي لا مهرب منه، فيما تحولت إلى سجين لزمني اللامرئي في مدينتي، التي علقت عليها آخر آمالي، وهل يكف الزمن عن طحني بأضراسه؟

وفي وسط هذا الزمن، لم تغب عن ذهني سلطانه وأبي يعطل شهوتي، ويتراءى لي ملمحاً ومحذراً بأصابعه.

ـ هل كان اسمه يتردد علىَ لسانها لحظة الهيجان؟

كنا نفكر نحن الاثنين به، أليس كذلك، وعلى الأقل في هذه اللحظة؟

وهذا ما زاد في التحام جسدينا فيما أغرق في جريمة بعثه من العالم السفلي وحشره في تفاهات عالمنا الحالي.

كانت تنهدات سلطانة الوافدة من تحت الأغطية الصوفية

الساخنة تأتي من القبر. جعلتني مفاتن جسدها الذي فتحت لي خزائنه هذه الليلة أن أعيد النظر في علاقتي مع النساء، ذلك لأن رعشات المضاجعة المحرّمة، التي بدأت بتبادل النظرات، والطرقات السرية على الباب، ودخولي المقنَّع إلى بيتها، كانت نوعاً من السحر. منذ سنوات، فقد جسدي ورأسي تلك الرعشات وكأنني كنت أضاجع أجساداً هامدة؛ نحيلة و بدينة، صلبة ورخوة، شقراء وسمراء؛ متشابهة في حين كان أبي غائباً لكنه ها هو يعود إليّ كطاغوت، ينظر إليّ، بعينين زجاجيتين، و يزمجر بأسنانه، يأمرني باحترام قوانينه الخاصة.. في الحب والمضاجعة، محاولاً عبثاً منع انتشار شهواتي المبعثرة مثل نبيذ أحمر، يسري في جسدي، وينعش رأسي ويجعلهِ خفيفاً مثل ريشة طائر غير عابئ بالرياح.

قلت في نفسي:

ـ سلطانة خانت أبي.. فهل تخونه معي مرة أخرى؟

لكن صوتها جاءني ليعقد لساني:

ـ أنت صورة شبيهة لأبيك؟

لا تزال الخطيئة تعشش في رأسي، طائر متوحش ينقل عشه من غرفة الفندق إلى بيت سلطانة قشة قشة.

تفاقمت دهشتي حين رأيت باب بيتها، نصف مفتوح، وأصابع يدها ممسكة بحافته الظاهرة كأنها تجمدت. وبعد أن انغلق الباب ورائي؛ قبلتني قبلة طويلة حارة، نشرت في جسدي نوعاً من الشلل المؤقت. دخلنا إلى غرفتها، متعانقين،

تبهر عيوننا الإنارة القوية المنتشرة. بجوار سريرها، ثمة طاولة واطئة، على سطحها المفروش بقماشة وردية قنينة ويسكي. سرعان ما انسللنا عاريين في باطن السرير، ناولتني كأسا ثم سكبت كأسها على جسدي، وراحت ترتشف بلسانها قطراته المنتشرة على شعيرات صدري وفخذي، فانتابتني قشعريرة، مزيج من الألم واللذة والدهشة لتلك الألعاب التي تخيلتها بعيدة عن متناول امرأة محتشمة مثل سلطانه، ثم رحنا نسكب كأسينا على جسدينا ونرتشفها، قطرة قطرة؛ بلسانينا وشفتينا.. دون أن نعبأ بالشبح الواقف على رأسنا، ذلك الحارس الغليظ الملامح الذي يكشر عن أسنانه كلما انتابتنا الرعشة. وكلما شعرنا بجفاف جسدينا، عاودنا الكرّة دون أن نشعر بحدود تلك الليلة. ومن بين خصلات الشعر ظهرت شفتاها وهي تتمتم:

ـ كنت أعرف بأنك ستأتي هذه الليلة.

عبارة أججت هذه الشهوة التي سجنتها في جسدي طيلة أعوام.

عيناها تتألقان، وتفصحان عن تمتمات وهمسات حاولت جاهداً أن أفك رموزها: لماذا كل هذه الحشمة من جسدي؟

أنا... جسدي، أتعذب به وأستعذبه، فهو ليس بالثوب الذي أرتديه وأنزعه متى ما أشاء.

قلت لها:

ـ الكتمان ليس من صفة النساء.

وتساءلت قائلة:

- ومن أين يأتي الزهو الرجالي؟

لم أكن أستطيع أن أجيب عن مثل هذه الأسئلة في مثل هذا الوقت.

لكن كل ما كنت أعرفه ومتأكد منه أن المرأة مخلوقة على مشيئة الرجل، فهي من ابتداعنا، وسلطانه هي من ابتداعي، وابتداع أبي، وربما هذا هو سرها، نوع من الوحش الأليف منذ كانت مع أبي الذي فشل بتطويعها، فطلقها وتركها لعشاقها الآخرين، وعاش مع أمي المسكينة. ولابد أنه تذمر ذات يوم قائلاً إن أمي لم تكن من طرازه، وهنا تكمن كل عذاباته الأبدية التي لم تهدأ إلا عندما دفنها معه في القبر.

وتمكنت أن أفهم أسرار أبي بعد هذه الليلة، في ازدواجية الزوجة والعشيقة؟

أن يعيش مع أمي لكنه كان يحلم بأن يمضي آخر أيامه مع سلطّانه، ولكن ماذا يقول للآخرين، وكيف يتمكن من كبح جماحها، في هذه المدينة الصغيرة بعد أن فلتت منه في العاصمة، متأرجحاً بين المكابرة والتسليم بالواقع واللامبالاة الظاهرية. لماذا كان أبي يتعلق بسلطانه، ويعتبرها كائناً غامضاً وسرياً؟

بينما كانت أمي فاقدة للإرادة، كل ما كان يطلبه منها أبي هو أن تنجب له ابناً، ابناً لم يره، أحب فيها عفويتها، بل وسذاجتها، وهندامها البسيط المتواضع، وروح البساطة والحشمة.

أبي منح سلطانه الحرية التي لم تفهمها في زواجها المبكر، لذلك صنعت من ضعفها خطيئة الخيانة، ولكنها تحولت إلى نوع من الحبيبة المنتظرة عندما طلقها فأصبحت بعيدة المنال منه. لم يكن أبي يريد الصفح عنها.

ولكي تكفِّر عن ذنوبها جاءت لتعيش بجوار قبره. ولعل أبي عاش جحيماً بين نموذجين من النساء، أمي وسلطانه، دون أن يفكر بزليخة، وهذا ما جعله يغوص في أعماق هاتين المرأتين كل يوم، بحثاً عن ذاته، دون أن يتمكن من الانسلاخ عن جلده في حب سلطانه، وشهوانيتها، وهندامها الجذاب، وألقها النسوي كما لا يمكنه أن ينسلخ عن أمي، المرأة التي أخلصت له وصانت شرفه. وفي أعماق نفسه خلق نوعاً من التواطؤ بين الاثنين، لم يكن ينفصم عنهما إلا بالموت، فتحول إلى ظل، شبح، وصدى، يتوارى بالصمت ويتماهى مع الأشياء التي تحيطه، فاختار الإدمان على الخمر كوسيلة للتواري.

كان عليّ أن أغادر سلطانة في تلك اللحظة قبل أن يحمل الفجر فضائحه.

13

جمع الفجر، خيوطه الفضية المتناثرة ونشرها على أطراف طرقات المدينة الخالية كأنها تبحث عن مارة أو أشباح، فيما عدا بعض الشيوخ الجالسين على الدكك، ينتظرون شروق الشمس، ربما سهروا حتى الفجر في هذا الانتظار. بدأت مصابيح أعمدة الكهرباء تتضاءل رويداً رويداً استعداداً للمغيب داخل حجراتها البيضاء الصقيلة المعلقة في فناء السماء وخرير النهر كان يتسابق مع صراخ سرب من النوارس الجائعة الباحثة هي الأخرى عن فتات بعض الغرقى المنسيين. وبين حين وآخر، يطغى على الجو صهيل خيول سجينة في اصطبلاتها، تنتظر لحظة الانعتاق. وهذا القوس الضخم الذي بُنيَ من ألواح الحديد والصفائح، تحول مع بياض الفجر وتضبّب الرؤية، إلى نسر يحرس مدخل المدينة، وظهر الصدأ المتآكل وتمزقت كلمات الشعارات التي حفرت على واجهاته مثل وجه نخره مرض الجدري وترك فيه بقعاً سليمة مهددة بالمرض، هذه

الكلمات، التي أخذت تعشّش في رؤوس المارة دون أن تعني الكثير، وحتى المقدسة منها، كانت توضع على أجسادنا مثل القمصان المزركشة، وتنظر إلينا كتمائم وأحجية تراقب ما كنا نقوله بل ما كنا نفكر فيه. كنت أعتقد بأنني لن أرى تلك الكلمات المهضومة بأسنان مسوَّسة إثر عودتي إلى مدينتي، لكني فكرت:

ـ كيف يمكن لكائن بشري مثلي أن ينفصل عن خلاياه الخبيثة.. وورم السرطان بدأ يظهر حتى في ألواح الحديد والصفائح.؟

أدركت الآن، أو هكذا خيّل إليّ، جوهر تلك الأعوام التي أمضيتها هنا إذ لم يكن ثمة حل آخر للسيطرة علينا إلّا بالخدع العقائدية.

بعد أن نفضت شعر رأسي من حبيبات الصدأ التي تساقطت من القوس الشاهق، سرنا في طريق معبدة، تظللها جدران شاهقة كأنها نفق هدم سقفه، فانفتح على السماء.

استدار إليّ حفار القبور ونحن نقتفي آثار أقدامنا في الطريق الممتد إلى المقبرة الجديدة، لاحت لنا أشجار كثيفة لم يكن ضوء الفجر الضئيل قادراً على كشفها.. ثم قال بحزن:

ـ لابد أن نعبر هذه الغابة اللعينة لنصل إلى المقبرة الجديدة.

ـ غابة لعينة.

ـ أجل إنها لعينة ومسحورة.

لا أقدر أن أحصي لك عدد الموتى الذين دفنوا في جذوع أشجارها. كانت الأفخاخ والشباك والحفر المغطاة بسعف النخيل وأوراق الأشجار والتراب والرمل والرماد تنصب لهم منذ رحيلك.

ـ أهي غابة للمبارزة؟

قهقه حفار القبور قائلاً:

ـ مبارزة.

اختفت أخلاق المبارزة هنا وأصبح الطعن بالسيف أو بالخنجر في الظهر هو القانون الوحيد.

ـ القانون الوحيد.

ـ وبعض القتلة لا يكتفي بذلك بل يريد أن يرى دم الضحية بنفسه.. يلمسه بإصبعه.. وأحيانا يشتهي أن يشربه.

تنهد وأضاف:

ـ أنت لا تعرف ما الذي حصل منذ رحيلك في البيوت والطرقات.. والجبهات.

بعد لحظات صمت قال:

ـ وأنت قطعت خمسة آلاف كيلومتر كي تنقل رفات أبيك.

ثم نظر في عينيّ:

ـ منذ أربعين عاماً لم تنسه. هنا لم يعد أحد يتجرأ أن يسأل عن أحد: الزوجة تخاف أن تسأل عن زوجها المفقود..

والأخ يخاف أن يسأل عن أخيه المقتول والأم فقط لا تخاف، أتعرف لماذا؟

لأنها تتغلب على الخوف بالدموع.

قلت له:

ـ ينبغي أن نحترس إذن.

طأطأ رأسه قائلاً:

ـ بالتأكيد.. فالغابة خطيرة.

ـ لماذا لا نذهب إليها بالسيارة؟

ـ الطريق ضيقة ولا تتسع حتى لعجلة واحدة.

بدأنا نسير ببطء.. نحن الثلاثة، امتلأت عينا حفار القبور بالدموع فيما بدا ابنه منهكاً. ولم يكن يظهر من الغابة سوى غيمة من غبار، أين سقط هذا الدخان الأبيض الكثيف، كأننا نتحرك في عالم هلامي وليس في مدينتي التي عرفت دروبها ومسالكها منذ طفولتي. الغابة غبار: أشجارها، أغصانها وحتى جذورها. لأول مرّة، شعرت بخوف يداهمني عندما انطلق حفار القبور بالغناء لكن الغناء هو الخوف أيضاً، وكانت الغابة، بأغصانها المثقوبة تمتص غناءه كما لو تمتص خوفنا الذي بدأ يظهر على شكل قطرات عرق تتصبب من وجوهنا وأجسادنا. ونحن نذهب إلى أبعد نقطة في الأرض.. في قلب الغابة.. في قلب الخوف، ولم تعد الخنازير البرية تخيفنا بمرورها الخاطف وهي تطلق حشرجة مقيتة كما لو أن الديدان

هاجت في أجسادها وصعدت إلى رؤوسها فيما نصب لها المزارعون الأفخاخ.

كنت أطأ بخوف الدروب الضيقة التي داستها الأقدام وحولتها إلى متاهة من الآثار والبصمات. رجال مسلحون يختبئون وراء الأشجار، ينظرون إلينا بعيونهم التي تبحث عن الانتقام لكنني كلما تلمست الكيس الذي يحتوي رفات أبي، شعرت بالطمأنينة التي افتقدتها أعواماً طويلة.

توقف حفار القبور عن السير فجأة وأخرج من الأكياس التي كان ابنه يحملها أحذية مطاطية خفيفة. ناولني زوجاً منها قائلاً:

ـ إنها أحذية من المطاط ينبغي أن ننتعلها قبل الوصول إلى المقبرة.

ثم حذرني:

ـ لاتأكل أية نبتة أو تضع أي عشب في فمك.

كان الهدوء رغم تغلغله في أعماق الأوراق الرطبة، يخرج على شكل موجات اختزنت صراخ الموتى وانفجارات القنابل وحوّلته إلى غبار ينخر العظام، وهواء الغابة كان غريباً.. مزيجاً من رائحة دخان وخردل ورائحة جثث آدمية مشوهة، أصفر الهواء مثل وجه رجل مسلول يهب على أجسادنا ويمتص الدم المتخثر في شرايينا.. هواء يحمل رائحة بارود مخدرة.

قال لي حفار القبور:

ـ هنا وقعت المجزرة.

ثم أضاف:

ـ لولا هذه الأحذية المطاطية لصعد سم الأرض من أقدامنا إلى رؤوسنا.

بعدها انفجر في ضحك عارم:

ـ أرض ملوثة بسخام نجهل أصله؟

كانت تتراءى بقع سوداء متناثرة على طول الطريق كأن قافلة مرّت من هنا وأشعلت الفحم ولم يبق غير الرماد، وآثار أقدام المارة لم تكن قادرة على إزالة آثار العيون الجامدة في الرؤوس الملقاة هنا وهناك.

لم أقل شيئاً.

لكني كنت أفكر باليد الضعيفة العاجزة التي حسبت أنها ستمتد إلي وتخلصني. أمي بعيدة الآن. فضلت البقاء بعيداً عن هموم زليخة وسلطانه.

كان الشيطان يهمس في آذاننا قائلاً:

ـ ليس أمامنا ما نقلق عليه سوى وادي الجحيم الذي سنعبره غداً.

لقد ابتلت مدينتنا بهذا الوادي، وأطلقت عليه أمي وادي الجحيم لأنه كان جحيماً بالفعل، تغسله سيول الفيضانات لأيام، ويظل بعدها مستنقعاً يحوي الضفادع وجثث الكلاب الميتة، ورائحته تكسو المدينة بنوع من غلاف يعطل التنفس. ومن أجل الذهاب إلى المقبرة كان لا بد لنا من عبور وادي الجحيم لأن الفيضان قد اكتسح الجسر الحديدي الوحيد الذي

كنا نعبر عليه ولم يشيّد جسر آخر بدلاً منه. وكنا، بوجود هذا الجسر، وطوال حياتنا، نعبره بسرعة دون أن نعرف اسمه لكن الذين كانوا يعبرونه آنذاك يعرفونه جيداً.

تعب حفار القبور من حمل المعول والمجرفة على كتفه.

قلت له:

ـ هل أساعدك في حمل هذه الأدوات؟

قال لي:

ـ إنها أصبحت مثل ذراع إضافية لي من كثرة التعود على حملها.

أشرفت الشمس على المغيب وبدأ الظلام يحل شيئاً فشيئاً قبل وصولنا إلى المقبرة، لذلك انطلقنا بأقصى سرعة ولم نكن نمتلك ما يصلح لإضاءة الطريق أمامنا سوى حدس حفار القبور في تحسس الطريق والحصى الناعم المنتشر على حافتي الطريق الترابي الذي داسته الدواب وجعلت منه طريقاً ناعماً موشوماً بالنقوش والآثار. نقيق الضفادع الكبيرة الأجش وأصوات الحيوانات البرية، وربما كانت الأشجار ذاتها تتنفس، حتى الوادي يتنفس، ونهر ديالى والأشباح وقطارات الشحن. كان الطريق الموحش مغموراً بالسرو والصفصاف المليء بأزيز البعوض وبأطياف السيارات الخشبية التي تحمل جثث الشهداء، الملفوفة بالبطانيات العسكرية الكالحة، وأخرى ملفوفة بالمعاطف السميكة والمشدودة فوق سطوح السيارات

بحبال القنب، وأولئك الناس المتعبين، والمفلسين، والنساء النائحات، والرجال الحزانى.

قلت بعد أن تعبنا من المسير:

ـ إذاً هذا هو الجسر وقد لا يكون هناك أي جسر.

وكأنما قرأ حفار القبور أفكاري فقال:

ـ لا تقلق على الجسر، لم نبلغه بعد ولكننا لسنا بحاجة إليه.

ثم بان لي الجسر الهلامي بعد قليل، ويبدو أننا قطعنا مسافة طويلة، دون أن نشعر، وهذا ما حصل. في حين غمر الوحل أقدامنا وأخذ يثقل سيرنا، وصعدنا فوق أرض جافة، وكان على حفار القبور أن يتحمل ثقل المعول والمجرفة، فيما أحمل بيدي الشاهدة التي سنضعها على قبر أبي الجديد، وابنه يحمل القرآن بيده الصغيرة.

عندما نقهر وادي الجحيم، ندخل إلى طريق المقبرة الجديدة ونشرف على هذه المقبرة التي صوروها لنا كمطهر، ثم قام حفار القبور بغسل المعول والمجرفة في بحيرة صغيرة من الماء مررنا بها في طريقنا، كما لو كان يقوم ببعض الطقوس المنقرضة فيما أخذ ابنه بالغطس في الماء دون أن يخلع ملابسه، ولم أكن أفهم السبب، كما لم تكن لدي الرغبة في السؤال عن كل حركة يقومان بها.

قال لي:

ـ في هذه المدينة، كل واحد منا يسمونه حسب ألقابه،

مهنته. ينادونني "حفار القبور" دون أن يعرفوا معاناتي في العيش مع أشباح الموتى. يزوروني بالبيت ويطلبون مني أشياء خارقة. أحد الموتى طلب مني أن أراقب زوجته بعد دفنه وفيما إذا كانت ستلتقي برجل آخر. وهناك عاشق جاء إلى المقبرة ليلاً وضاجع عشيقته بعد أن دفنّاها. وعندما مسكته توسل إلي وقال إنه حقق حلمه، لا يهمه الموت بعد ذلك. أو أن امرأة جاءت إلي في منتصف الليل وتريد مني أن أخرج ابنها الشهيد من القبر حتى تقبله وترى وجهه لأنهم منعوها من رؤيته قبل مواراته التراب.

ـ من يعرف هذه الهموم غيري؟

وشركات دفن الموتى التي ظهرت مـؤخراً تحاربني وتهدد رزقي.

ولا يعرف أهالي المدينة أني أنام وأستيقظ مع الموتى وأفكر بمساحات الأرض لأجد أمكنة لقبور جديدة بعد أن كانت أرض المقبرة خالية.

هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بوجود شركات دفن الموتى في مدينتي. كان كل شيء يبشر بالموت حتى لون بشرتي أصبح رمادياً من الغبار، الذي جلبناه معنا من الطريق، وله طعم الموت ورائحته، حتى الكلاب والأطفال لم يكن يثيرهم منظر المشيعين أمثالنا، فلم يركضوا نحونا ليراقبونا كالمعتاد.

كنت حزيناً، ولا أرى من بعيد سوى انثيالات الضوء

تتسلل عبر النوافذ المزدانة بخرق ممزقة علقت على شكل ستائر.

عندما أصبحنا في فسحة، اقترح علينا حفار القبور أن نركب عربة وندور على المزارع وبساتين الفاكهة في أطراف المدينة، نزلنا عند فلاحين بسطاء، أكلنا من زادهم وشربنا من مائهم، لنواصل الطريق إلى المقبرة الجديدة، التي كانت كما لو أنها تبتعد آلاف الأميال عن مدينتنا، وهي قريبة جداً، كما أكد لي حفار القبور، كيف إذاً تزداد المسافات هكذا، لا أدري، رغم أني أعرف بأن هذه الضاحية لم تكن بعيدة، لكن الريح وحدها تشعرنا ببعد المسافة، خارج المدينة، وهي تصفر وتولول مثل النساء، سمعنا خبب خيول مجهدة، تعبة، وهرمة كما يبدو من صهيلها المتحشرج وكأنها تنذرنا بموتها وموتنا. وكان الغرباء القادمون من كل المحافظات يزدحمون على تلك الجادة الترابية من أجل الوصول إلى المقبرة، لا نعرف ما إذا كان بينهم لصوص أو قتلة، كانت المساكن المهجورة تبث الذعر في نفوسنا، وتجرنا الريح إلى جهتين، إلى المدينة والى خارجها، إلى المقبرة وبعيداً عنها، وصوت أمي ينساب من بين الظلام:

أكمل المهمة التي جئت من أجلها، مفهوم؟

أجل، يا أمي، وماذا أفعل الآن ألا تريننني أقطع هذه الطرق والممرات والفيافي من أجل الوصول إلى المقبرة الجديدة؟

لكني دهشت عندما تراءى لي من بعيد أن صبية ورجالاً يرتدون حلة الاحتفالات وينتظمون في صف، ويرددون الأناشيد الوطنية، ولكنهم لم يعبأوا بنا أبداً، ربما هم يستقبلون جنداً عادوا من جبهات الحرب في مدينتنا التي لا تبتعد كثيراً عن الحدود.

سألت حفار القبور الذي احتقن وجهه، لعل شيئاً ما حصل، من يدري؟

سألته:

ـ ما الذي حصل؟

لم يجب، كما لوكان في حيرة، وكأنه فقد طريق المقبرة.

ـ هل فقدنا طريق المقبرة؟

ـ كلا.. كلا إننا نسير في الطريق الصحيح.

وبعد لحظات صمت، قال:

ـ هل نحن بحاجة إلى أن نتوارى في التراب كي نرى يوم الحساب بأعيننا، إننا نعيشه كل يوم. لماذا نتضرع لرؤية هذا اليوم؟

كان بودّي أن أسأل حفار القبور، غريب الأطوار:

ـ من أين يسقط علينا، نحن العراقيون، كل هذا اليأس الأسود؟

فجاء جوابه كمن كان يقرأ أفكاري قائلاً:

ـ يا أستاذ، استبشرنا خيراً بقائد الثورة على الملكية وأقامت مدينتنا تمثالاً له، تفاخرنا به، وفرحنا وراودنا الأمل

لأول مرة ولكن سرعان ما جرّوا تمثاله بالحبال وأسقطوه أرضاً وبصقوا على وجهه إلا أن مجنوناً هرب برأس التمثال وخبأه في إحدى السراديب.

وقلت في نفسي:

ـ هل يعقل أن نضع كل آمالنا في رجل واحد؟

لا بد أن اليأس الأسود يأتي من شيء آخر أكثر عمقاً وأبعد مما يتصوره حفار القبور هذا. وهل عليّ أن أنصاع لأفكاره؟

خيل إلي أننا نسير في مجرة واسعة لا حدود لها، لم تصل إليها رياح العصر، يا إلهي، من أين يأتي كل هذا الخوف، هذه الرعشة التي تخطف القلب.

حاولنا الخروج من تشابك الغابة ووحشتها في طريقنا من أجل إلقاء رفات أبي في حفرة ترابية ثم العودة إلى الفندق، ومن بعد ذلك السفر إلى مقر عملي ربما. لقد مضت أيام الإجازة ولم أفكر حتى بشراء المشط الذي كنت أفتقده كل صباح. وكنت أتردد على ذات المطعم الذي ذهبت إليه يوم وصولي إلى مدينتي. أضواؤه خافتة، ومقاعده الخشبية تالفة لكن النادل الشاب كان يعاملني معاملة جيدة لذا كنت أفضله على المطاعم الأخرى. كنت أستيقظ كل صباح متأخراً، لا أدري ماذا أفعل، فالمهمة التي جئت من أجلها على وشك الانتهاء. كنت أذهب إلى المقبرة القديمة المهدمة، تجذبني رائحة البخور والتراتيل القرآنية لقارىء أعمى طربت لصوته

المبحوح، ألتقي هناك مع خوفي المروع من رائحة الموت ولا شيء غيره في هذه المدينة. ومن هذه الرائحة كنت أفهم الإيمان الذي افتقدت إليه طوال حياتي، الإيمان بعظمة الموت وما يأتي بعده، هل ثمة شيء بعد الفناء؟

وهل هناك أرض أبعد من أرض هذه المقبرة المترامية الأطراف؟

هكذا كنت أدافع، وأنا أرى رفات أبي، عن نفسي ضد شياطيني الخاصة. ورائحة البخور تذكرني برائحة العدم التي تخيِّم على المقبرة والمدينة معاً. أجد نفسي بلا وطن فعلاً، هناك يعتبرونني أجنبياً مثيراً، وهنا مغترب مشكوك في أمره، وخصوصاً في هذا اليوم، الجمعة حيث يخرج المصلون من المسجد، متوجهين بجلاليبهم البيضاء الناصعة إلى بيوتهم، والمطاعم والمقاهي تقفل أبوابها، آنذاك عرفت أول مرة ما هي العائلة التي افتقدت إليها منذ زمن.

ولم يكن يُحجمني السؤال عن مصير مدينتي.

الكل يبحث عن الحل والرحيل.

وأحسست بعذوبة تتصاعد إلى رأسي أمام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة، وأنا أقوم بآخر طقوسي، في نقل رفات أبي، فيما تصاعد صوت من بين الأشجار كأن كائناً نزل من السماء وراح يهمس في أذني. التفت إلى حفار القبور وابنه وسألتهما فيما لو كانا سمعا صوتاً. كنت الوحيد الذي سمع هذا الصوت الذي يدخل في أذني مثل موجة تائهة، يأتي

متقطعاً أثر مروره بين أغصان الأشجار، يمتزج مع نور وهّاج ولماع انتشر على الغابة بكاملها:

ـ أهذا ما أرادته لك تلك الغانية التي خدعتك بمفاتن جسدها؟

لم يكن ذاك غير صوت أمي.

أجبتها:

ـ من الذي أخبرك بذلك؟

ـ المهم أنك دنّست روح أبيك.

ـ ليس ذنبي.

ـ سترى كيف ستهيم في بلدان مجهولة، ولن تجد مأوى على الأرض.

صوت سلطانة:

ـ تعال وكن عريسي.. ولا تَهِمْ في البلدان المجهولة. تعال وقصّ علي أخبار عشيقاتك الشقراوات.

ـ أنتِ التي أخبرت أمي بما حدث بيننا.

ـ هكذا تسبّني وتهينني.. أنا التي منحتك اللذة في الظلام.

صوت أمي ينطلق ثانية:

ـ أغربي عن وجه ابني، أيتها الخبيثة، يا من تراقبين حتى أرواح الموتى، ماذا تريدين أكثر من أن ينقضّ على أبيه ويقتله؟

ـ لا تصدقي كلامها يا أمي.

ـ وأنتَ تركت كل الفاتنات وسقطت في أحضان مَنْ خانت والدك.. أنتَ المزهو برجولتك.

ـ يا أمي، رأيت رؤيا بأن أبي يخرج من الكيس، يلملم رفاته وينتصب بقامته، ويصفع وجهي صارخاً:

ـ أغرب عن وجهي.. وأغرب عن مدينتي.

ـ أعرف.. أنها هي التي أغوتك.

ـ لكني لم أعرف أنها ستجلب عليّ لعنة الخطيئة.

ـ فات الأوان الآن.

ـ لكني لو عثرت عليها الآن لأخذت المعول من حفار القبور وشققت به رأسها نصفين.

ـ أتركها يا ابني، سوف تسقط الأحزان على قلبها مثلما سقطت على قلبك.

ـ سألعنك، يا سلطانة.

صوت سلطانة:

ـ لكنك شريك تلك الليلة.. لماذا تلعن البغي التي سقتك خمراً، وارتشفته من جسدك.

ـ اللعنة عليك.

ـ فمك الذي يلعنني الآن كان يباركني في ظلام اللذة.

ـ وعذاب الخطيئة.

ـ أية خطيئة؟

ـ أبي.. أبي يا سلطانة.

ـ نظر إليّ وأمسك بيدي وقادني إلى دار الظلمة.. حيث غزت جيوش النمل الأسود محجري عينيه.

ـ هذا مصير الجميع.

ـ أنت تعرفين بأن أبي كان فرحتي وبهجتي.

صوت أمي يعود للظهور من جديد:

ـ لقد حذرتك منها يا ابني.

ـ وما الفائدة الآن بعد أن حلّت الخطيئة في روحي وجسدي، أنا الذي هجرت أضواء العالم من أجله، وسلكت طريق البر والبحر والجو، وأسرع الخطى إليه من الشروق حتى الغروب.

صوت سلطانة:

ـ ما الذي حملك على هذا السفر البعيد، عابراً البحار وقاطعاً الطرق والممرات؟

ـ أتيت قاصداً أبي.

قهقهات صاخبة فاضت من الغابة:

ـ تصورت بأنك جئت من أجلي.

ـ عزمت على أن آتي إليك بالحزن والألم والبرد والحرّ.. وفي الحسرات والبكاء.. فاغفر لي خطيئتي يا أبي.

صوت أمي:

ـ أتمنى أن تتحول ثمار الأشجار التي تبصرها إلى أحجار كريمة وعقيق ولؤلؤ تتدلى منها كالأعناب، فتسرّ عيناك لمرآها.

صوت سلطانة:

ـ ألم تنم على فراشي الوثير ونسيت رأسك الذي كان يعذبك، كل ليلة في الفندق؟

ـ يا سلطانة.. لماذا لم توصدي الباب في وجهي وتحكمي غلقه بالمزلاج؟

ـ لكنت تحطم الباب وتكسره.

ـ كيف؟

ـ رأيت ذلك في شرارات عينيك.

ـ صحيح؟

ـ أنظر إلى نفسك.. لماذا ذبلت وجنتاك ولاح الغمّ على وجهك الشاحب؟

ـ كيف لاتذبل وجنتاي ويصفرّ وجهي وقد تحول أبي إلى حفنة تراب أحمله في كيس بيد واحدة.

ـ ابتعد عن أفكارك السوداوية.

ـ امتنعت عن تسليم رفاته للقبر ليلة ونهاراً معلّلاً نفسي بأنه سينهض من بكائي.

ـ إذن عد من حيث أتيت.

ـ أريد أن أكفّر عن خطيئتي تجاه أبي قبل أن أموت.

ـ تصورتك بطلاً، فإذا بي أجدك ضعيفاً مثل فراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها.

ـ ماذا عساي أن أفعل.. أينما أضع قدمي أجد خطيئتي.

ـ أنصحك:

ـ عد من حيث أتيت إذا كان ذلك سيتغلب على خطيئتك.

كنت أعتقد بأني سأغتسل في النهر بعد مواراة رفات أبي في قبره الجديد، وأتطهّر من كل مهاوسي وقلقي، وأنظر عبر نافذة إلى نهاية الزمن.. مطلقاً مخيلتي.. ها أنذا أنظر إلى ضريحك وأنت تنظر إلى اللانهاية.

هل قمت باقتراف هذه الخطيئة إرضاءً لنزوة اقترفتها بحق إنسان يشبهني؟

أعرف أن لا إجابة على سؤال الرغبات. وسلطانه لم تكن لي سوى صورة المرأة التي لا بد لي من تعريتها، وإماطة اللثام عن أسرارها الجسدية حتى أصل إلى مكامن روحها مع أبي. وفي هذه الليلة، فهمت أبي أكثر من السابق، وكل ما توصلت إليه أن العزلة نخرت روحه والخمرة نخرت كبده، ومرضه الجنسي لم يكن سوى إشاعة، لأن العزلة تنهش ذاتها كما تنهش كل ما تمسه، دون تفريق، حتى الحجر الأبيض، إنه الغريب في هذه المدينة، التي كان قدرها أن تعيش منغلقة تجاه الغرباء. لا يمكن لي أنَ أسبر أغوار الصراع الكامن في روحية أبي، ولا معرفة ما كان يفكر به، لكنه ولا أعرف لماذا أنكر طبقته وأصله ونسبه ليعيش وحيداً هنا، دون أن يدعي أي شيء على الإطلاق، كما لوكان ابناً للعدم، يبدأ الحديث بذاته، وينتهي إليها، ورغبته في اجتثاث جذوره بدأت منذ انفصاله عن سلطانه ومغادرة العاصمة إلى هذه المدينة الحدودية

القاحلة، في بلد يتنفس فيه الناس الغبار المنبعث من قلاعه وآثاره وأساطيره.

وتساءلت في سري، وأنا أتوجه لدفن رفاته:

ـ لماذا كل هذه القطيعة والنكران ياترى؟

وفي خضم هذا التفكير خاطبني حفار القبور قائلاً:

ـ يجب أن ندفن رفات والدك في منتصف النهار أو في منتصف الليل.

ـ لماذا؟

ـ كل شيء يتوقف ويهتز في هذين الوقتين.

عاد الصمت، يتقطّر من الأغصان، ويترسب على رؤوسنا، ولم نكن نسمع تغريد طائر أو حفيف أشجار فيما عدا وقع خطى طابور المشيعين.

كنت أعرف أن وراء المرء دائماً طابور لانهائي من النماذج المكرّرة. كلهم صفقوا، في البداية، لتحويل المقبرة لكنهم ثاروا في النهاية، ولكن بعد فوات الأوان، لازال حفار القبور يتحدث لابنه عن أشجار تشيخ وأخرى تذبل من الحزن.

رفعت رأسي إلى شبكة الأغصان، بحثاً عن مصدر ذلك الصوت، ثم نظرت إلى رفات أبي، وجدته هامداً لايتحرك.

انطلق صوته حزيناً هذه المرّة:

ـ حاول أن تثقب الكيس وتصغي لما أقول.

تذكرت ما قاله لي أمين المكتبة:

ـ هل تدري ماذا قال لي أبوك قبل موته؟

ـ ماذا؟

ـ عندما أموت، حاول أن تثقب القبر وتصغي لما أقول، قد أكون أكثر قدرة على رؤية الأشياء.

ـ أجل فقد تنبأ بكل ما حدث هنا.. وكان على علم بأن قبره سينبش، وتأتي أنت لنقل رفاته.

ـ كان متألماً بدوني.

ـ الآلام ليست سيئة دائماً يا ابني.

ـ لكنها قبيحة.

ـ الإنسان دون آلام مثل بحيرة من دون ماء.. فهي التي تقوم بتشغيل رؤوسنا.

ـ ماذا تقصد.. أتصنع منّا فلاسفة؟

ـ ولم لا؟

ـ وهل كان أبي فيلسوفاً؟

ـ كان بإمكانه أن يصمد أمام أسئلة الشيطان.

ـ أسئلة الشيطان؟

ـ أجل.

انطلق صوت أبي ثانية:

ـ أينما تضع قدميك في وطنك تلاقي الموت.

ـ الموت.

ـ ألا ترى حتى الأحياء ينهمكون في تشييد قبورهم.. أنظر إلى أيديهم تنقل حتى النقوش والشواهد.

بعد لحظات صمت انطلق:

ـ وأنت.. هل لديك إبن يحمل عظامك بعد موتك؟

ـ لا.. لا..

ـ لماذا لم تتزوج؟

ـ نسيت الزوجة والأطفال.

ـ ولماذا لاتبدأ الآن؟

ـ الآن.

ـ ولِمَ لا.

ـ لكن الوقت متأخر يا أبي.

صرخ أبي وكاد أن يثقب طبلة أذني:

ـ ما دمت تشتهي امرأة فلا شيء متأخر.

نظرت إلى حفار القبور وابنه اللذين كانا يسيران بحزن دون أن ينتبها لهذا الصوت المزمجر:

ـ اقذف هذا الكيس الذي تحمله في أقرب وادٍ وعُد من حيث أتيت.

ـ هل علمت بما حصل بيني وبين سلطانه؟

ـ الحب هو اكتشاف للجزء الأكثر سرية وقدرية في كينونتنا، يا ابني.

ـ إذاً أنت غير راضٍ عني، أليس كذلك؟

ـ أنت قطعة مني، أنت تشبهني، قدِّر عليك أن تقترف الأخطاء ذاتها، لذا فأنت غير راض عن نفسك.

ـ وهل تصفح عني؟

ـ من أكون أنا حتى أصفح عنك؟

ـ أنت أبي، ومصباح النور الذي أهتدي به.

ـ كنت أباك، ولكني لم أعد أباك الآن، إنني تراب، هل تفهمني؟

ـ أجل، ولكني متعلق بك وربما لأنني لم أرك.

ـ من جاء بك من هناك؟

ـ أمي التي طلبت مني أن أنقل رفاتك إلى المقبرة الجديدة.

ـ ولماذا تحاولون أن تحافظوا على رفاتي، ألا تمتزج ذرات تراب الأرض بكاملها ذات يوم؟

ـ في يوم القيامة؟

ـ لا طريق أمامك سوى أن تنجب ولداً يفكر بدفن رفاتك ذات يوم.

وسرعان ما امتدت يداي إلى الكيس الذي يحتوي رفات أبي ورفعته عالياً إلى السماء، فخرجت من فوهته نملة سوداء وسارت على يدي، ارتعشت من هذا الملمس الغريب، فتهاوى الكيس من يدي وتناثر الرفات على أرض الغابة، فانكب حفار القبور وابنه يجمعانه ويضعانه في الكيس ثانية فيما أصابني الشلل كأن جهودي كلها انهارت وذهبت سدى مثل هذا الغبار.

قال لي حفار القبور بنبرة حزينة:

ـ أنت قلق وشارد الذهن منذ الصباح، سندفن رفات أبيك بعد قليل، وينتهي كل شيء.

كانت ارتجافات الغابة ماهي إلّا ارتجافات عالم كنت أخاف منه على الدوام. ليس ثمة أوراق تحمي الأشجار وليس ثمة أب يحميني. كنت أصلي لأكون مثل شجرة، فلم يعد السحرة يظهرون في الطرقات التي تمتد أمامنا مثل سدود ترابية هشة نحو المقبرة الجديدة. كنت أتقدم مثل محارب مهزوم وخيوط الفجر تلتمع من جديد بين الأغصان وتمتزج بها بعض شعاعات لاهثة من الشمس مثل وليد يخرج من بطن أمه.

ثمة صدى جنائزي انطلق من الغابة أشعرنا بالاقتراب من المقبرة الجديدة، طابور من المشيعين اجتازنا، وأدى لنا التحية بنظرات مريبة كأنهم أكلوا أحشاء أحد رفاقهم في الطريق. تراءت لنا المقبرة الجديدة مثل بنايات بيضاء شامخة، طُليت جدرانها بالجبس الأبيض، فغمرت الفناء بفيض من شعاع أبيض كزبد البحر يطفو في السماء ويبهر عيون الملائكة، أبراج للمرأقبة، نُصبت عليها كاشفات ضوء قوية لإنارة الفناء المحيط وتبدو القبور على شكل صناديق مكدسة وثمة نسوة سمراوات، لفحت وجوههن شمس لاهبة، يرتدين عباءات سوداء فضفاضة، يكشفن عن أجسادهن العارية، ويختبئن خلف القبور ويبتسمن لي.

أنظر، ها هي أفواج أخرى عامدة الخطوات نحو أسوار المقبرة المتهدمة كأنما تريد أن تقتلعها، بل وتخترقها، تقفز من فوقها متناسية البوابة، يقتربون من القبور اقتراب من يود أن يعانقها، وهناك من يقف صفوفاً تبلغ الأميال أو الفراسخ،

كلهم من سكان المدن الأخرى، وفدوا من الأزقة والمنعطفات والشوارع والطرقات، جاؤوا من جميع الجهات، واتحدوا جميعاً عند المقبرة، أترى أن الشواهد المدونة عليها أسماء أحبتهم وأبناؤهم وعشاقهم وعشيقاتهم قد اجتذبتهم نحوها، مقبرة مليئة بالمسارب والتجويفات، والمرايا المهشمة، وقراء يطلقون العنان لقراءة القرآن على أرواح الموتى، والخرق الخضراء بآلاف الأمتار، وكأن كل بقعة من أرض المقبرة مشربة بالأجساد، والجميع شاردو الذهن. أصبح غبار الموت أكثر ثقلاً على رئاتنا، انقطعت أنفاسنا وكأننا أصبنا بضيق النفس، ورائحة التراب المبلل بالماء تعبق في المقبرة كما لو أنها تعبق في حجرات منزلنا، وما زلت أتذكر، وأمي تروي لي أنها عندما كانت حاملاً بي تأكل هذا التراب المبلل، بحيث كان جسدي ساعة ولادتي مغطى بنوع من الغرين، الذي غسلته القابلة وأزالته من جسدي كي لا يتسرب إلى عيني. ثم رأيت الأهالي يهمون بنقل القناديل، عندما حلت خيوط الظلام الأولى، وراحت تخلق ظلالاً على جدران القبور ذكرتني بالأخيلة التي كنت أتصورها وقت الطفولة، لا أدري من أين كان ينبثق هذا الضوء؟ و هنا قلت في نفسي كأنني أستعير لغة الأساطير التي ولدت على هذه الأرض وتشبعت بها، ومن كثرة شيوعها أصبحت ملكاً للجميع:

ـ ما الذي جاء بك، ماذا دعاك إلى السفر الطويل؟

أريد أن أسأل أبي، الذي بلغ مقام الآلهة، جئت أسأله عن الحياة، عن الموت.

لاحظت أن حفار القبور كان حزيناً للغاية بل ويتعثر كثيراً في طريقه، وصرخ بابنه.

فقلت له محاولاً التخفيف عن ثقل الحزن الذي يخيم علينا:

ـ قل لي، ماذا جرى، أراك غاضباً؟

قال لي:

ـ لأن أصدقاء والدك الحميمين لم يكلفوا أنفسهم عناء الحضور معنا إلى المقبرة.

ـ من هم: الحوذي، وأمين المكتبة، وكاتب النفوس، وصاحب الحانة وصاحب الفندق؟

ـ أجل، لا يوجد غيرهم.

ـ ربما إنهم على حق، أنت لا تخاف بحكم مهنتك، ولكنهم ربما يخافون على مصالحهم ووظائفهم.

ـ لكن الزمن تغير الآن... من يسأل عن من؟

الملفات القديمة لم تعد نافعة في نظر البلدية.

وبينما كنت شارد الذهن، رأيت ثلة من النساء، يرتدين العباءات السود، يغطين أجسادهن العارية، قهقه حفار القبور مازحاً:

ـ هل نسيت نساء بلدك؟

ـ ماذا يردن؟

ـ إنهن لا يبحثن عن اللذة بقدر ما يبحثن عن إنجاب الأبناء.

ـ إنجاب الأبناء.

ـ ألا يوجد رجال في المدينة؟

ـ التهمتهم الحرب. وكما ترى لو نزلت كل الحيامن من السماء بدلاً من نزول المطر لما عوّضت حيامن الرجال الذين فقدوا في الحرب.

ـ السماء تمطر الحيامن.

ـ ولِمَ لا!

اجتمعت النسوة حولي كأنني نبشت خلية نحل وحشي، واحدة تمشّد شعر رأسي، أخرى تمسح قطرات العرق المتصببة من وجهي، وأخرى تلاعب بأناملها الزغب الظاهر في صدري وأخرى تقبلني، فيما تشم أخرى رائحتي. حاولت أن أتخلص منهن ولكن عبثاً. رفعت رأسي إلى السماء، كانت الغيوم تزدحم في سماء المقبرة فيما شق البرق والرعد ظلام الفجر، هطل المطر، نازلاً على رؤوسنا، سرعان ما لمسته بيدي فشعرت بلزوجة، بيضاء، تعبق منها رائحة تشبه رائحة الحيامن المنوية التي تزكم الأنوف كما لو كانت حيامن فاسدة، نوع من البيض الفاسد الذي لا يفقس.

صرخت:

ـ حيامن تنزل من السماء!

انبهر حفار القبور مثلي وراح يتلمس حبيبات المطر اللزجة على رأسه.

قلت له:

ـ هل هذا هو المطر الذي تقصده؟

ارتبك قائلاً:

ـ أي مطر.

ـ إنه؟

ـ مطر يشبه الحيامن!

عندما بدأت الحيامن البيضاء تنزل بكثافة من السماء.

تركتني النسوة، وابتعدن عني، ثم ألقين عباءتهن السوداء، وانطرحن عاريات على الأرض، فاتحات أفخاذهن إلى السماء.. إلى المطر اللزج الأبيض من الحيامن الإلهية، ولم يكتفين بذلك، بل كنّ يرشقنه بأكفهن إلى داخل فروجهن الجافة، المتفطرة، والمحمرة، وكأنهن يطفئن بها لهيباً باطنياً، وكلما تساقطت الحيامن بغزارة من السماء، ظهرت علامات النشوة في عروق وجوههن كأنهن يحلمن بمضاجعة رجال متوحشين، ظمأى، عائدين لتوهم من جبهات القتال.

قلت في نفسي:

ـ هل استجابت السماء لدعاء حفار القبور لتعوض الأبناء الذين فقدوا في الحرب؟

ثم فكرت:

ـ ما الذي فعله حتى تستجيب له السماء بهذه السرعة..

هل هي الإرادة الإلهية التي حولت المطر إلى حيامن تلقّح النسوة بعد سنوات من الجدب وموت الأبناء؟

وسرعان ما سرى المرح والهزل والبهجة بين جموع النساء المتلفعات بالعباءات السوداء.

آنذاك شعرت بأنني أسير بجوار نصف إله أو نبي وليس بجوار حفار قبور بثياب رثة.

التفت إليّ قائلاً كأنه علم بأني أفكر به:

ـ السماء تمطر الحيامن..

يبدو أن حفار القبور بدأ يخاطب المجهول فيما كانت الحيامن تتساقط من السماء وتغسل فروج النساء، تتكدس؛ وتشكل خطوطاً ناصعة البياض من النطف الملتهبة التي تحاول أن تخلق صغارها وتقذفهم في أتون عالم لا يعرف أحد مصيره. هنا.. لا فراش يتسع للنسوة، كأنهن يضاجعن الريح، تأوهات تنتهي بعد دقائق قليلة في العتمة، وبإمكانهن استخدام أجسادهن إلى ما لا نهاية.. إلى الأبد.

أطبقت على رأسي أعجوبة الحيامن.. كأنها نسوة تصبغ شعورها وتطلي أفواهها بأحمر الشفاه. أدركت بأن فصل الحمل لم يكن كئيباً ذات يوم، والحيامن البيضاء اللزجة التي تضايقنا منها لأنها التصقت بشعور رؤوسنا، ما هي إلا مبعث ابتهاج للنسوة، يلقمن شراهة الحياة التي تطالب بالمزيد، وكن يبتلعن جزءاً من الحيامن جوعاً، فيما رحن يطلقن لعناتهن على الحرب التي أخذت أولادهن قرابين ونذوراً، وهن يحلمن

بأولادهن المفقودين الذين امتزجت أجسادهم مع غبار القنابل والصواريخ، في الجبهات التي امتدت إلى آلاف الكيلومترات كأن موتهم كان يضيء حياتنا، لكن ما ينخر نفوس الجميع أن موتهم كان يفتقد إلى المعنى، وهذا جرح لا يندمل، لأنهم لم يسعوا إلى حتفهم أبداً بل ألقوا بهم في خنادق الحرب وقت أحلامهم.

بدت أشجار الغابة القريبة عارية تماماً كما لو أنها تمنح نفسها للحيامن التي تتساقط على سطوح المقابر.

وفجأة رمى حفار القبور المعول والشاهدة اللذين كان يحملهما على كتفيه، وقال لي بدهشة باردة:

ـ لا داعي لحفر القبر فهي جاهزة هنا!

أنظر.. حتى أسماءنا مكتوبة هنا على صناديق القبر. هذا اسم أبيك.. وهذا اسمك، وهذا اسمي.. وهذا حتى اسم ابني الصغير.

ثم أخذ مني الكيس ووضعه في فجوة الصندوق المثبتة في جدران المقبرة الشاهقة. وما إن أغلق بابه حتى ظهر حارس المقبرة وسلّمني مفتاحاً حفر عليه رقم سري، وضعته في جيب سترتي.

وفي هذه الأثناء رأينا رجالاً يتوجهون نحونا، ابتهج حفار القبور وصرخ قائلاً:

ـ هاهم جاؤوا أخيراً.

كان كل من أمين المكتبة وكاتب النفوس والحوذي

وصاحب الفندق وصاحب الحانة يقهقهون، ودون مبالاة، كانوا ثملين يتمايلون في مشيتهم، يتعكز أحدهم على الآخر، ويرددون كجوقة واحدة:

ـ افتح لنا صندوق القبر والكيس حتى نرى صديقنا الراحل لآخر مرة.

وهجموا عليَّ محاولين خطف المفتاح من جيبي، لكني ضغطت عليه بكل قوتي ودفعتهم، وساعدني حفار القبور وابنه، وهم يرددون:

ـ نحن الذين ندفنه وليس أنتم.

لم أكن أعرف كيف أتصرف، فرد عليهم حفار القبور صارخاً:

ـ ماذا حل بكم هل جننتم؟

بعد ذلك بوقت قصير، ابتعدوا عني، وقالوا، هيا تعالوا معنا، إننا سنختار زاوية في هذه المقبرة الجديدة لنلعب القمار ونحتسي الخمر، ثم ننصرف إلى بيوتنا.

أجابهم حفار القبور:

ـ ألا تخجلوا؟ اذهبوا إلى الحانة وسنلحق بكم.

سرنا قليلاً، في هذه المتاهة، وإذا بنا نرى زليخة وسلطانه، تسيران مع بعضهما، تقدمتا نحونا، قالت لي زليخة، وهي تتوسل:

ـ اعطني الكيس لأدفنه في القلعة، أرجوك أريده بالقرب مني.

فيما تقدمت مني سلطانه قائلة:

ـ اعطني الكيس لأدفنه في العاصمة، ثق أنها مدينته ولا يرتاح إلا فيها.

كادت الحيرة تمزقني، الكل يريد أن يدفن رفات أبي، ولا أدري ما هو رأي أمي الآن.

قلت لهما:

إصغيا لي جيداً، إنني أتيت من بعد خمسة آلاف كيلومتر لأنفذ وصية أمي، أرجوكما كُفّا عن الميت.

قالتا لي:

ـ ونحن مثل أمك تماماً.

بعدها ذهبتا تبحثان عن صندوق القبر بعد أن يئستا مني، فيما رأيت أمين المكتبة وكاتب النفوس وصاحب الفندق والحوذي وصاحب الحانة، يصطحبون نساء جميلات، وقد أنزلنّ العباءات على أكتافهن، فظهرت وجوههن من الوشاح الأسود، وكن يتضاحكن، ويتقافزن، ويصرخن.

ثم أخبرني حفار القبور بقلق شديد:

ـ ينبغي أن نسرع الخطى نحو المدينة لأن النهار لايتعدى بضع ساعات هنا.

كانت النسوة اللاتي لفّحن فروجهن بالحيامن النازلة من السماء، يغادرن إلى المدينة بالرقصات والزغاريد، فيما تتدفق على طريق المقبرة الجديدة، أفواج من النساء الأخريات الباحثات عن الأبناء. كنّ يجلسن في ظلال القبور، يرمين

عباءاتهن السوداء على الأرض مثل أسمال رثة، ويفتحن أفخاذهن للريح، ينتظرن نزول الحيامن البيضاء من ثقوب السماء من جديد، بعد أن ينتعشن بقيلولة قصيرة، بين حين وآخر وراء القبور الشاهقة، المطلية بالجبس الأبيض.

استرخيت على الكرسي الخشبي قبالة النافذة، أرسل نظري إلى الجرافات التي لا زالت تزحف كالثيران على أسوار المقبرة، أغمضت عيني، كان صوت أمي يأتي كالريح الخفيفة، ويتسرب إلى أذني حيث كنت ألمحها تتوجه صوب الفندق فيما تحرك الريح عباءتها السوداء الفضفاضة.

هرعت لاستقبالها في الشارع، قالت لي بحزن:

ـ ألا تعلم من كنت تقلد في مشيتك، مقوس الظهر؟

ـ لاأدري.

ـ كما لو أنك شخت في الأيام الثلاثة التي أمضيتها في نقل رفات أبيك؟

قلت لها:

ـ هل كنت أقلد أبي في مَشيته؟

قالت لي والدمعة تنفجر في عينيها:

ـ أنت نسخة منه، لماذا لا تبقى معي، وكم تبقّى من عمرينا كي تهجرني ثانية، يا ابني؟

لا أدري كيف تضاعفت ـ مدة إجازتي، الأيام الثلاثة، المخصصة لنقل رفات أبي إلى المقبرة الجديدة ـ إلى ثلاثين

سنية دفعة واحدة مثل معجزة خارقة. ووجدت نفسي في السبعين من عمري، أتجول في مدينتي مثل متسكع مجنون يتكئ على عصا أبنوسية، وأجالس الشيوخ الطاعنين، ونلعب النرد إلى أن ننام على أرائك المقهى، تغالبنا قيلولة الظهيرة الساخنة. ولا أدري كيف مضت السنوات بهذه السرعة العجائبية المذهلة، وجدت نفسي بين شطري مدينتين لا تعقد بينهما مقارنة أو توأمة، تبعد بينهما فراسخ روحية سحيقة، لا مرئية في الحسابات المادية الصرفة. جئت إلى مدينتي شاباً، أحمل برقية أمي، ولم أكفّ عن الاحتفاء بوالدي الميت طيلة حياتي هنا وهناك، مدركا بأن أباً مثله لا يمكن أن يتكرر في التاريخ، وأتعجب كيف قادني رفاته إلى حتف مصيري، دون أنْ تكون فكرة القرين تعذبني كثيراً بل تغريني بالتوحد معه. وما زلت أنظر بكل إعجاب إلى قدرته في ترميم حياته بكل برودٍ عقلاني كي ينسجم مع نسائه والآخرين ويدفن فورة تمرده في قاع هذه المدينة البائسة. مضى الزمن. أجل مضى بعجالة لا مثيل لها مثل تقاطر حبات المسبحة الثقيلة التي لا تقوى أصابعي الواهنة المعروقة على تحريكها، فيما يمرح معي أصدقائي الشيوخ في المقهى ويستعرضون فصولاً من حياتي، ويؤنبونني على عودتي النهائية إلى مدينتي. في تلك الأثناء، امتدت يدي إلى عود الثقاب وبدلاً من أن أشعل سيجارتي، أشعلت كومة الأوراق الرسمية البالية والممزقة والنافذة ـ بعد أن أخرجتها من جيبي وألقيتها أمامي على الطاولة المهتزة ـ

جواز السفر، بطاقة الإقامة، تذكرة طائرة العودة، وبقية الأوراق المختومة، التهمها اللهيب الأزرق المتصاعد، تلفحني رياحها الحارقة كأنني ألامس خدود الجحيم، قاع مدينتي العالم السفلي الذي لم يعد يخيفني، وأتلقى الطابوق الأصفر على جسدي ليسدل الستار على فصول حياتي، وأطرق بوابة الجحيم، لأبدأ رحلة جديدة من أهوال المقبرة الجديد لمدينتي، ذات الأبراج البيضاء، فيما ينتصب ابني ـ كنان خارج بوابة الجحيم، ولا يتوقف عن الاحتفاء بي مثلما فعلت أنا، وهو يتصفح في كتاب بالي الورق تفاصيل حياتي الممتدة بين مدينتين، بين وهمين، بين امرأتين.

باريس 1992 ـ 2002